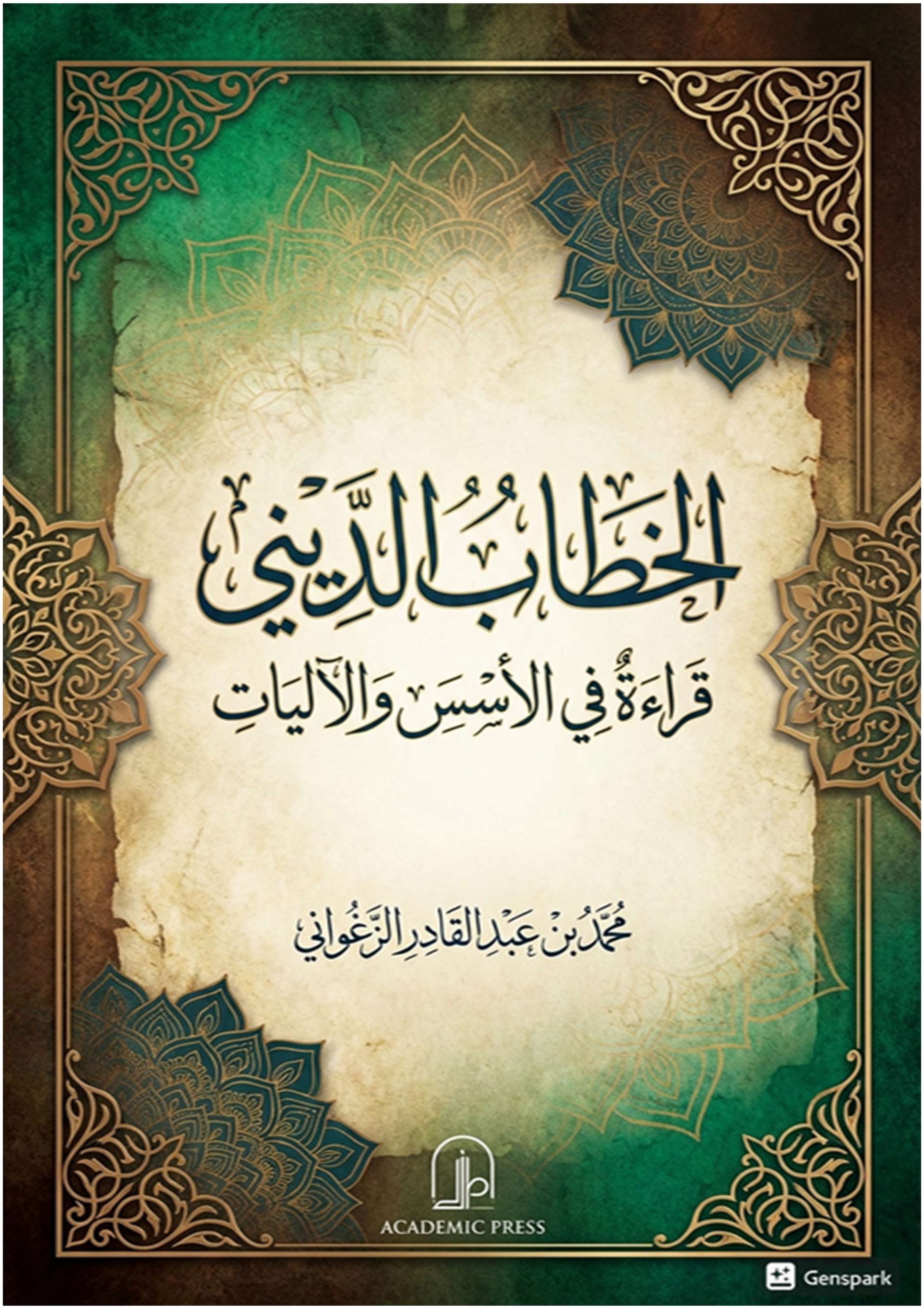
الخطابُ الدِّيني
قراءةٌ في الأُسُسِ والآلياتِ
مُحمّد بن عبدِ القادرِ الزّغواني
ACADEMIC PRESS
Genspark

الخطاب الديني

قراءة في الأسس والآليات

محمد بن عبد القادر الزغواني

2026

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى عائلتي

فهرس المحتويات

مدخل 9

الباب الأوّل: الاسس 13

الفصل الأوّل: التصوّرات: 15

1/ الإنسانية 16

2/ الكونية 22

3/ الخاتمية 29

الفصل الثاني: المفاهيم 33

1/ الحق / الحقيقة 34

2/ النص / اللغة 40

3/ الأصل / المقصد 56

4/ الفقه / التشريع 57

5/ الإعجاز / الصدّ والتفاعل 66

الباب الثاني: الآليات 78

الفصل الأول: عدم احتكار المعرفة: الحرم والميقات 82

الفصل الثاني: عدم احتكار السلطة: التأسيس والترسيم 90

الخاتمة: الخطاب زمن الذكاء الاصطناعي.. 101

مدخل

من أجل أن يعود للكلمة دورها

عندما يصبح النص أوضح من تفسيره، والمعنى أكثر جلاء من تأويله، والخطاب عاجزا أن يجاري بريق الدين وإشعاعه. عندما يتراجع الخطاب الديني إلى تلك المستويات يصبح الأمر جللا، والمبادرة بالبحث عن العلل والأدواء فرض الوقت.

الإسلام اليوم يتجاوز الناطقين باسمه، وكلّ المساحات التي حوصر داخلها، كنهر يثور على سدوده، وكل تلك المسارات لم تحترم مكامن القوة في الماء.

الإسلام يخرج عن صمته، ويحرج كل أولئك الذين مُنحوا امتياز التحدّث باسمه بدون جدارة. هو اليوم عيونا تتفجّر في أماكن قاحلة صُنّفت كمراتع لليأس والموت، أماكن كانت تُعد مساكن للشياطين.

الإسلام اليوم يتحدى اللغة وإعرابها، ويثبت أنّه لا يحتاج الإعجاز كي يذعن له الإنسان. ووقوفه شامخ الرأس، برغم كل الهزائم وتخاذل الاتباع، يثبت أن العرب لم يكونوا يوما شرط وجوب ولا شرط صحة لهذا الدين.

اليوم يتفجّر الإيمان هادرا بكل لغات العالم، وعبر كل منصّاته، ومن خلال خوارزمياته، بل ومن تحت ركام المباني التي تدكها القنابل دون توقف.

يقف خطابنا الديني عاجزا أن يجاري كل تلك المشاهد والصور التي يعبر من خلالها الإيمان نحو أقوام ما فقهوا يوما حرفا من لغة القرآن الكريم. قلوب وعقول اخترقها الإسلام كما يخترق الماء العذب الصخور في صمت وإصرار ولين.

كنا نحسب ونزعم أننا المطايا، يسافر من خلالنا الإسلام نحو الشعوب. كنا لا نكف عن الترداد أننا خير أمة أخرجت للناس، سلالة النبيّ، وبقية السلف الصالح، فإذا بالواقع يفضح زيف كل الادعاءات، وتكشف المواقف أننا كنا حجر العثرة، وعلة التأخير، وبعض أسباب شقاء الأمم.

كنّا المطايا المثقّلة بسقط المتاع، تعجز أن ترفع الرأس، بدون حاد تسير، غير عواء الذئاب، ومرياع غذّي حليب حمار كسيح.

عيوب في التحمّل وعيوب في الأداء، وعدالة جرح لم يكتمل بقرار سياسي.

نحن لا ننكر الفضل غير أن المنعرجات والانكسارات توجب ولا بد المساءلة والمراجعة، وما العيب أن نمارس بعض (النسخ). النص نفسه علمنا كيف التدافع، وبماذا تبنى القامات.

مذاهب ومواقف وخيارات لو كانت أصناما من صخر لفتّها الريح، ولكنه العناد والخوف من فقدان المصالح، والجبن أمام الأزمات.

نتدارى خلف الشيوخ وداخل المذاهب كي لا يفتضح جبننا وتخاذلنا، ونصرف النظر عن زهور تداس بالأقدام... فالآلام تطهر النفوس، والجوع، قالها الحبر الأكبر، ينقي الأرواح ويزكيها !

بالأمس أبرهة الأشرم كان الدليل أن البيت لا يحتاج شيوخ القبيلة ولا سيوفها، واليوم كل ما بناه الإنسان كي يعلي كبره، يخرّ لربّ العزة ساجدا.

لم يعد الدين يحتاج وعاظا ولا متكلمين، ولا حتى وزارة تدير الشأن. الإسلام ليس يحتاج اليوم سيوفا، ولا أقلاما، ولا ألسنة ذربة، فالنص يقف وحيدا يتحدى الجميع، يتحدى التطبيقات والخوارزميات. صيّروه صورا ومشاهد وبيانات وأرقاما، ولكل لغات العالم ترجمت معانيه، لكن دون جدوى. هو الوحي كما الماء لا يكف عن التشكّل، كما النسائم تحسن العبور إلى القلوب الحزينة.

يحاصرنا التحدي، نحن أصحاب البيان، ويربكنا الخجل أن نعجز أن نتابع القافية، أن نكون أمام القافلة. فكل الصور التي نحملها قد غدت مبهمة، حتى تلك التي عن الذات تحكي صولاتها. نسيء الجوار حتى مع ذوي الأرحام، ونحسب الحب أن يصير المعشوق ملاكا، بلا ظل، قبل الزمان والمكان.

النص كان قبل القول وقبل الفعل، يعلّم الإنسان كيف يكون الناطق بالأسماء.

يبدو أن السجود لم يكن كافيا لتكون لنا الجرأة على القول. لم نتعلم من الدرس غير ضرورة الأكل، وأن ستر العورة كل التقى.

في هذه المحاولة سنحاول أن نعيد للنص مكانته، وللوحي تدفقه، وللذات جرأتها أن تسيح في جنان المعنى، وأن لا تخجل من الخطأ. فخلف كل شجرة " كلمات " تعيد للخطى ثباتها.

الخطاب ليس قولا يكرّر، ولا مواقف تسجّل، هو الذات تعلن ميلادها، والحياة تسجّل حضورها.

الصمت موت، والمجاملة خيانة. لذلك نمد من رحابة الصدر بساط المعذرة، ونستسقي دموع الفقد كي تثبت أقدامنا في هذه الطريق.

فكل الرجاء أن تقرأ هذه الكلمات بعيون الثكالى والأرامل، وأن ترسم كلوحات يرى فيها الأطفال بعض الأمل.

الباب الأول

الأسس

الفصل الأول

التصوّرات

1/ الإنسانية.

هل يمكن أن نجازف فنعلن أن محنة الوحي الكبرى هي ذلك التعالي الذي هو خصيصته ! الكثير من اللزوميات التي ارتكزت عليها أغلب القراءات والتنزّلات، التي ستؤخذ لاحقا كمرجعيات تأسيسية، كانت بالأساس نتيجة النظرة الضيقة إلى ذلك التعالي والتقديس الذي سيصبح لازمة الوحي وشرط حضوره والاعتراف به.

استغراب وتساؤل قد يبدو للكثيرين غير ذي بال باعتبار أن التعالي والتقديس هو جوهر الدين وحقيقته. فالوحي بداهة هو حضور المفارق والمتعالي في الوجود البشري، وتعبيره عن (المشاركة) في فعل الإنسان، وطلبه الانصات والالتزام. وبالتالي فالتقديس، الذي هو غاية التعظيم والاستسلام، سيكون أولى المنطلقات و (المحاذير) التي ستؤطّر أي قول ديني.

لكن في تصوّرنا هذه البداهة ستكون بمثابة الشرخ المتعاظم بين الوحي والخطابات المتأسّسة عليه. فقد أنست القداسة أن الوحي وإن كان عن المتعالي يصدر فهو الإنسان فهما وتنزيلا يطلب. منه بالأساس يستمد زخمه وحضوره. لا وحي بدون إنسان يقرأ ويكابد التنزيل.

الوحي ليس هو بالأساس حضور المتعالي في الوجود، فالكون برمته، ومن ضمنه الإنسان، هو المعبّر الحقيقي عن وجود المتعالي وحضوره الفاعل في الوجود. لذلك نحن نعتقد أن الوحي ليس إشكاله الأساسي إثبات الذات والصفات. مباحث، كما نزعم، تاهت عبر دروبها الضيقة أسفار المتكلّمين والأصوليين.

الوحي، وخصوصا وبأكثر وضوحا مع القرآن الكريم، ومن خلال الدعوة المحمّدية يقولها صراحة: الإنسان هو جوهر الدين ورسالته. همومه وشروط ترقّيه وعدم إفساده هي جوهر الرسالة وهدفها الأسمى.

كل تلك (الضمانات الإيمانية) كانت لخدمة الإنسان وتشجيع فاعليته في الوجود. للأسف كل تلك الضمانات صيغت في قوالب اعتقادية قانونية (المطلوبات / المخالفات / العقاب). ومن كل تلك الخيوط الناعمة نُسجت حول الدين شبكة عنكبوت آسرة لا تميّز بين ضيف زائر وعدو مهاجم. وأصبح هاجس الوحي، ومدار الرسالة التأسيس للتعالي وترسيخ التقديس، وسُحب طبعا كل ذلك ليشمل كل سلطان متغلّب. حتى الطبيعة ذاتها أجبرت على إعلان الإيمان والإقرار بالخضوع، وأن تبرأ من كل حول وقوة وقانون.

طبعا كل تلك المحدّدات والترسيمات الاعتقادية ستتأسّس عليها منظومة كاملة من الأقوال والقواعد التشريعية التي أحكمت الطوق حول الإنسان مبعدة إيّاه عن الوحي ومساحاته الشاسعة. ومقاربتنا هذه ليس يراد منها الإدانة ولا هي غمزات بها نستنقص جهود الرجال، ونقصي بها مسارات في المعرفة والتأسيس لا يُنكر فضلها وإبداعها، وإنّما نحن، بما نؤشّر ونحيل، نعيد للنظر آفاقه الرحبة، وللنص انفتاحه، وللرسالة مقاصدها وكلّياتها.

غياب الإنسان والإصرار على الاشتغال على (نسخة معدّلة) منه مضيعة للجهد، ماحقة لثمرة الخطاب، مكرسة لغياب الدين وتشوّه معالمه، وعجز مؤسساته.

إنسانية الخطاب الديني مسألة معيارية ومحدّد أساسي لصدق ارتباطه ومسؤوليته.

فالخطاب كفعل بشري ليس يُقبل منه البتة أن يتنكّر لبشريته بدعاوى كاذبة ورسولية موهومة.

لا علاقة للخطاب الديني بالتعالي والقداسة مهما كانت درجة قربه من النصوص التأسيسية أو حضورها فيه. فالخطاب الديني يجب أن ينزع عنه وهم الدفاع عن المتعالي وتثبيت حضوره في الوجود والنفوس. ليس ذلك دوره وإن أوهم علم الكلام بذلك وخدع الكثيرين عندما قدّما صراعاته الأيديولوجية والسياسية، في كثير من الأحيان، باعتبارها " علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات "[1].

إن حالة الحرب التي يتخفّى خلفها الخطاب الديني من أجل التغطية على اخفاقاته في الوفاء بواجباته تجاه الإنسان والمجتمع، يجب أن تنتهي.

السلم الاجتماعي هي الأرضية التي يجب أن يعمل الخطاب الديني على تكريسها من أجل أن تتدافع الأقوال والخطابات بعيدا عن سيف السلطان وفتاوى الإمام.

أنسنة الخطاب الديني كانت لها محاولات معتبرة في تاريخنا المعرفي، وحتى في تجاربنا السياسية، لكن للأسف الكثير من تلك التجارب وقع تشويهها، إمّا من قبل الخصوم، أو نتيجة ممارسات لم تستطع المحافظة على زخم الفكرة وثوريتها.

[1] ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق د. على عبد الواحد وافي، ط القاهرة 1960م، ص 1035.

أكيد أن الحديث عن (الأنسنة) داخل موروثنا الثقافي القديم يجب أن لا تأخذنا الحماسة في قراءته بعيدا. فالإنسان كمفهوم توسعت حدوده وتعقّدت أبعاده نتيجة كل المسارات التي وقع تثبيتها في مختلف العلوم الإنسانية والمدارس الفلسفية. ذلك الإنسان لا يمكن أن نبحث عنه في تلك الاحقاب المتقدمة. فغياب الفضاءات يعني بداهة غياب امتداداتها وثمارها.

لنضرب مثلا بسيطا ولكنه في تقديرنا يجمل الصورة ويضبط الفكرة؛ مفهوم (المواطنة) كما هو متشكّل اليوم، نكون لأسلافنا ظالمين إن نحن ذهبنا في مساءلتهم عن جملة الحقوق والامتيازات والإثراء لمفهوم الإنسان، التي يوفرها اليوم للإنسان مهما كانت مكانته.

فمن غير المنطقي أن نطالب بحقوقٍ فضاءاتها لم تتشكل بعد. فمفهوم الوطن، كما هو متشكّل اليوم، كان في تلك الأحقاب من غير المفكّر فيه. الدولة ذاتها كانت تتلمس خطواتها الأولى في الانعتاق من آسار القبيلة. وقس على ذلك بقية الحقوق والواجبات التي هي اليوم بديهيات العيش المشترك.

وبالتالي فغياب كل ما نعتبره اليوم مقوّما من مقوّمات الإنسانية لا يمكن أن نتخذه مطيّة للقدح في التوجهات الإنسانية في ثقافتنا الإسلامية القديمة.

طبعا هناك معايير ومنطلقات تسمح لنا أن نحاكم الأسلاف من خلالها وندينهم أو نُكبر توجهاتهم وخياراتهم في هذه المسألة، لكن ما يؤرقنا اليوم، ونحسب أنّه التحدي الذي أوقف زخم فكر النهضة لدينا وعطّل نجاحاتها، كيف يمكن أن يتنزّل حضور الإنسان ودوره في الخطاب الديني؟

فالمنطلقات الناقمة والرافضة للفكر اللاهوتي في خلفيات فلسفات التنوير، التي تقدّم كتأسيس لفكرة الأنسنة، جعلت أغلب مقاربات تجديد الفكر الديني، خصوصا من داخله، تنظر بعين الريبة لهذا المصطلح (الأنسنة)، ولا ترى فيه " إلا الوجه الآخر للعلمانية "، والرفض المطلق للمقدّس والمتعالي.

إن العداء الذي أُشربه الخطاب الديني لكل مفهوم أو مصطلح يصدر عن الآخر، خصوصا الناتج عن حروبه مع الكنسية وعقائدها المتسلطة، (التي بالمناسبة فكرنا الديني يرفضها ويكفّرها)، وذلك الخوف المرتعب من الأفكار لمجرّد صدورها عن أشخاص وتيّارات لها مواقف نقدية من الدين، كل ذلك العداء والخوف هما في تصوّرنا أساس الأزمة، وموانع التحديث.

المفاهيم التأسيسية، والأفكار الفلسفية تخترق واقعها وتتجاوز لحظتها، وتتخطى قائلها. لا أحد اليوم يقول إن السؤال كأساس لبناء معرفة رصينة هو لحظة يونانية أو مقولة سقراطية. كذلك الشك كمنهج معرفي ليس بالضرورة يجبرنا أن نكون ديكارتيين قلبا وقالبا.

انصُر أخاكَ ظالمًا أو مَظلومًا، مقولة في بنائها اللغوي تحيل ضرورة على العقلية القبلية والحمية الجاهلية، الرسول صلى الله عليه وسلم لم ير أي حرج أن يأخذها كما هي ليعطيها بعدا عميقا يحقق مقاصد الإسلام ومنهجه في بناء العلاقات داخل الجماعة.

والأمثلة كثيرة في النصوص التأسيسية (القرآن الكريم / السنة قولا وفعلا) التي أسست منهجا في التعامل مع المختلف والاستفادة من كل التجارب.

الإنسان في تصوّرنا هو العنوان الأبرز ، والهدف الأسمى الذي اشتغل عليه الوحي منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلّم. فهذا الإنسان منذ اللحظات الأولى التي وعى فيها وجوده وهو يكابد (الأسماء) و (الإغواء) من أجل أن يدفع استغراب الملائكة وحيرتهم، وتوعّد إبليس وقسمه.

أن لا يفسدوا في الأرض، وأن يعودوا إلى جنتهم ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد:23]، كانت تلك هي رسالة الوحي، والمقصد الأسمى الذي يجمع كليات الرسالة.

خطاب ديني لا يتأسس على ذلك التصور خطاب مخادع، متنكر لدوره، متعالي على واقعه، يؤسّس للكبر في الوجود، ويبرر لفرعونية الإنسان واستبداده. وذلك للأسف حال قطاعات كبيرة من خطاباتنا الدينية، تفشل عندما يكون الإنسان مستهدفا وقضاياه هي ذات الأولوية.

2/ الكونية.

أعتقد أن فكرة عالمية الرسالة المحمّدية وكونية الإسلام من أبرز الأفكار التي يتعثّر عندها الخطاب الديني ويواجه أكبر تحدّياته. فهذه الفكرة تستعمل غالبا كألوان برّاقة بها نوشي حواشي الخطاب، ونكابر من خلالها.

وما كتب حول هذا الموضوع عبر تاريخنا الممتدة فوق الحصر، فالكل مجمع أن عالمية الرسالة المحمدية الميزة الأكبر. التأسيس والتحليل في مختلف العلوم من تلك المسلّمة يبدأ وعندها ينتهي. لكن بمجرّد أن تطلب الممارسةُ تفاصيلها، والخطى خرائط الطريق، والمشاريعُ الإصلاحية تُمكّن من زمام الأمور، يبدأ الارتباك وتتلجلج الأقوال... ويبدأ التبرير.

إذ حينها لا نجد غير خطاب يستعمل صيغ الجمع بضمائر المفرد، ويحيل على المستقبل بأفعال الماضي، وذوات تتعالى توجّه المرايا نحو الذات كأمثلة للاقتداء.

فالإسلام كما انتهى تشريعا، وحتى اعتقادا، عربي التوجه والروح، بدوي السمت والهوى.

لا يزال يتحمّل وزر قتال أبناء القبيلة ويطالب بالثأر، والقول قد انتهت أطرافه بين المدح والهجاء... نوع من الاسترزاق وطلب الولاء.

ونحن نتوقع أن يرى البعض في كلامنا نوعا من التجنّي والمبالغة في التوصيف، وقراءة خاطئة للعلاقة بين الدعوة كما عايشها الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة معه، والإسلام كما وقع ضبط خصائصه.

والمسألة في تصوّرنا ليست في باب التداخل والتمسّك بروح التجربة، كما تذهب الكثير من القراءات النقدية، بقدر ما هو التقصير، وربما الخوف، من مساءلة الخيارات والإكراهات التي وقع تبنيها في بدايات التأسيس.

إن اللحظات الأولى للتجربة، خصوصا بعد انتقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، كانت حاسمة في تحديد التوجّهات وضبط المسارات.

صحيح هناك قراءات كثيرة جدا تناولت تلك الفترات. تقريبا كل المؤرخين تعرّضوا لتلك اللحظات المؤرقة، بدأ بابن إسحاق (ت151هـ) وابن قتيبة (ت276هـ)، وصولا لابن خلدون (ت 808هـ). المعاصرون كانت لهم الكثير من المحاولات (محمد رشيد رضا / طه حسين / العقاد / أحمد أمين / فهمي الجدعان / إبراهيم بيضون / هشام جعيط / رضوان السيد / محمد مختار الشنقيطي ...)، الكل حاول أن يفهم تلك اللحظات وأن يقدّم قراءته للوقائع والأحداث. مما نزعم أنه ساهم بشكل أو بآخر في إغراق تلك الفترة بكم هائل من المعلومات والتفاصيل التي عوضا أن تقدم صورة واضحة عن تلك اللحظات ورطت الذات القارئة في بحار من التفاصيل والتفاسير التي تداخلت بشكل مربك، مما أفقد النتائج والتحاليل الكثير من الشفافية، خصوصا وأن المبحث الأساسي والهم المؤرق كان البحث عن أسباب الاختلاف والفرقة.

تلك كانت، ولا تزال، القضية الرئيسية التي شغلت الفكر العربي الإسلامي: لماذا تفرق العرب والمسلمون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؟ لماذا وجدت المذاهب، وكيف تفرّعت؟ لماذا تقاتل القوم؟

إن هذا السؤال (لماذا ؟)، وإن كان مبرّرا، كان كما التيار الهادر الذي جرف الفكر الإسلامي بعيدا عن قضاياه الأساسية.

بعيدا لأنه نظر للافتراق وكأنه جرم وعيب نحاول أن نداريه، وأن نكشف عن أسبابه القاهرة، ومقترفيه المتآمرين!

إنّ الصدمة التي حلت بالأصحاب وهي ترى سيوف أتباع النبي صلى الله عليه وسلم تتقاتل كانت صدمة عنيفة لا نزال إلى اليوم تحت تأثيرها، ونحاول أن نتجاوز آثارها بكثير من الفشل والإحباط.

تلك كانت بدايات النظر، فهم أسباب الاختلاف والتقاتل ومحاولة الرجوع إلى حالة الاجتماع والانسجام. وهم أوقعتنا فيه تلك النظرة السريالية لتجربة المدينة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

تحنيط التجربة والتعالي بها كأفضل نسخة يمكن أن تُعرض جعل كل الجهود في مختلف المجالات، وإن باختلاف في بروتوكولات التخفي، ترتكز على تقديم التجربة كنسخة جاهزة للبعث والتمثّل.

إن الانفتاح على المختلف من أجل الضبط والسيطرة على الذات هو ولا بد محكوم بهاجس الخوف من الاختراق. وقد كانت تلك التهمة الحاضرة تقريبا في كل تجليات الخطاب المعرفي. منذ البدء فُهم الإسلام على أنه خط مستقيم يرفض الانكسارات، كنبع صاف يأبى الامتزاج.

لذلك كان النقد والمراجعة، والجرح والتعديل، ورشات من أجل البحث عن الصفاء وترسيخ الوفاء للنصوص المؤسّسة.

طبعا المسار بارز بجلاء في علوم القرآن وعلوم الحديث، علوم اللغة نفسها كان تقديم الأعرابي البدوي علامة على صدقية المعنى وأصالة اللفظة.

ولعل محنة الخطابات الفلسفية على اختلاف مشاربها وتوجهاتها كانت بسبب كل ذلك الانفتاح (اللامسؤول) الذي تأسست عليه. وإلى اليوم لا يزال الخطاب الديني ينظر بعين الريبة للخطاب الفلسفي، بل وحتى لخطاب العلوم الإنسانية، وذلك رغم الجهود المبذولة من أطراف عديدة من داخل تلك الخطابات لمد جسور التواصل مع الخطاب الديني (أركون / نصر حامد أبو زيد / الجابري / حنفي / طه عبد الرحمان / الشرفي / ...).

إن الانطلاق من اللغة كأساس مرجعي لقراءة القرآن الكريم واستنباط مقاصده وكلياته، واتخاذ لحظة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة كخلفية وحيدة، كل ذلك قاد إلى مثال نموذجي لما يمكن، وما يجب.

كينونة الإسلام كما نفهمها هي أوسع وأعمق من مجرّد العالمية، هي في الصميم مجاوزة للمفهوم الضيق للملة. هي تخترق، وتسائل، وتراجع كل المفاهيم والتصوّرات التي ترسخت عن الدين والوجود، ووظيفة الإنسان في الكون. بمعنى ما مجاوزة لـ (الدين) كما ترسّخ حتى من قبل أتباع الديانات السماوية السابقة.

في ذلك السياق تُفهم كل تلك الحفريات التي قام بها القرآن الكريم موظفا كل آليات وأساليب القول، وخصوصا القص والحوار.

في القص وقع الرجوع إلى اللحظات الأولى، عند أساسيات عمارة الإنسان ذاته؛ من هو؟ وما هو دوره في الوجود؟

قصة آدم كما وقع طرقها في مختلف المواضع من القرآن الكريم طرحت كل تلك الأسئلة مبقية العديد منها دون أجوبة حاسمة، فقط جملة من المحدّدات والآفاق الرحبة للنظر والقول.

القصة في القرآن الكريم وضعت مسارات الرسالة تحت الدرس وثبّتت أضواء كاشفة على مسيرة الأنبياء وجهودهم، وكل ذلك ليس لمجرّد لذة القص وحدود الاعتبار. إنّها المجاوزة ما تطلبه قصة القرآن وتحض عليه، هي أيضا تكشف الحدود والإمكانيات وتحفّز على التجربة.

الحوار كذلك يعيد للقول وللخطاب دوره الأساسي كأداة تواصل ومدافعة. الشعر والخطابة، وغيرهما من أنماط القول مما شاع وأصبح المهيمن في ممارسة اللغة، ليس بين العرب فقط، هي مانعة لتراكم المعرفة وفاعلية التواصل.

وبالتالي تصبح الكونية، كما دعا لها الإسلام، انفتاح الذات على الآخر، ونسف الادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة والمنهج الأصوب.

الكونية وهي تُقدّم كرديف ومعبّر عن التسامح رسّخت في الذات استعلاءها وفي الخطاب صنميّته، وأعطت للأسف الشديد في بعض الفترات ونتيجة عديد القراءات، الذريعة للإقصاء، وحتى الاستئصال.

الإسلام كما صاغه القرآن الكريم وحدد سبله وآلياته الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي للكونية مفهومها الحقيقي المؤسِّس لوجود بشري متفاعل يطلب الاستخلاف والإعمار، لا مجرّد الاستعباد والاستعمار بدعاوى الشعب المختار والأمة المتحضرة.

الخطاب الديني وهو يحاول النهوض من كبوته مدعو بإصرار بالتخلي عن ذلك التصوّر الهش الذي يتأسّس عليه باعتباره خطابا يهدي الصلاح والنجاة للعالمين، لأنه بكل بساطة يفتقد، كما أسلفنا، أسس ومقوّمات العالمية والكونية.

اليوم عندما نرى تديّن من لا يفهمون العربية ولا يتقنونها، وننظر في إسلام من نشأوا في دول وجماعات غير عربية ولا مسلمة ، ننبهر من كل ذلك النقاء والإخلاص، ولكن في نفس الوقت نشعر بالارتباك والحيرة عندما نقارنه بمستوى التدين والإسلام كما هو منتشر في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، ارتباك وحيرة تطال جمله التصوّرات والمفاهيم التي نحملها عن فعل التدين وعلى الإسلام على وجه الخصوص.

كثير من الاعتبارات والتأسيسات يجب مراجعتها وهي، في زعمنا، شروط بناء خطاب كوني يتجاوز اللغة والعروبة كمحدّد أساسي لبناء التجربة الدينية.

طبعا ليست هذه دعوة للتنكر لكل اسهامات اللغة العربية ولا لإقصائها عن مجالات الدرس والإسهام في بناء الخطاب الديني، والاحتكام لها في فهم النص، ولا هي غمزة لدور العرب

كحاضنة للتجربة، وإنما قولنا ومحاولتنا من أجل مزيد من الحفر في ذواتنا من أجل إعلاء انسانيتنا قبل قوميتنا، وفطرتنا قبل هويتنا.

الإسلام باعتباره رحمة للعالمين لن يبلغ ذلك المقصد بفهوم ترى الفكرة تراثا وطنيا، والشعيرة مؤسسة وطنية تدار بحسب قوانين البلد ودستورها. إن فرض جنسية وجواز سفر من أجل الارتحال في معالم هذا الدين وممارسة شعائره، والحصول على وثيقة ممضاة من دار الإفتاء من أجل الاعتراف بصدقية العقيدة. موانع لا تزال قائمة تمنع الإسلام أن تكون له عالميته التي نتبجح بها، وتصد رحمته أن تشمل العالمين.

3/ الخاتمية.

مفهوم (الاكتمال) المتأسّس خصوصا على قوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:3]، من أدق المفاهيم الذي وقع إساءة فهمه، وتوجيه مساراته نحو وجهات نزعم أنها ابتعدت كثيرا عن المقاصد الجوهرية التي يتضمنها. وجهات وخيارات أفقدت مفهوم (الخاتمية) الكثير من زخمه وحالت دون أن يُقرأ كما يجب في أبعاده المعرفية والاجتماعية، وخصوصا التشريعية.

فعندما فُهم الاكتمال كمصطلح يطابق معنى الكمال، وبلوغ الغاية، ومنتهى المقصد، انساقت الخطى، بوقع حادي الخوف، رقاب أصحابها مشدودة إلى الوراء في حسرة ولهفة باعتبار أن الكمال يستدعي النقصان كما قال عمر بن الخطاب، وكما سيترسخ الأمر في لاوعينا الحضاري. فلا عجب والأمر كذلك أن تكون مسارات الخطاب الديني في مجملها محاولات للتشبّث والتماهي بقدر المستطاع بلحظات الاكتمال بكل دقة... لا قبلها ولا بعدها.

طبعا سيكون ذلك التحديد الدقيق من تلك الفرص المحببة لتيارات كبيرة في ثقافتنا من أجل مناكفات وصراعات الدامية.

ورغم النصوص الصريحة التي اعتُمدت ورسّمت كقواطع، مثل حديث " خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ... " [البخاري / الرقم: 6695]، إلا أن حبل التجاذبات كان يسمح لبعض (المشاكسين) ببعض المساحات للمناورة، والاستفزاز.

الخطاب الديني، الرسمي على وجه الخصوص، كان الأرق السياسي والاجتماعي هو المهيمن على توجهاته، لذلك لم يرى نفسه معنيا بكل تلك التجاذبات، وبنى سورا منيعا حول تلك الآثار كان بمثابة القلعة التي ستُشق داخلها مسالك المعرفة والنظر في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

فالخاتمية كمفهوم مؤسّس في التصوّر الإسلامي من أدق المفاهيم التي دارت حولها جل المفاهيم الأصول، بل ربّما (الدين) كلّه وقع قراءته واستقراء مساراته انطلاقا من جملة المحدّدات التي انبثقت من ذلك الخط الدائري المغلق بإحكام.

النظرية الدائرية في علم التاريخ وقراءة مسار الحضارات[1] ستمد الفكر الديني بأسس متينة تبرّر خيارته الصارمة.

طبعا لن ننساق هنا في مباحث انطولوجية ولا حتى كلامية لأن الخطاب الذي نشتغل عليه ونحاول أن نجلّي تصوّراته ومفاهيمه هو ذاك الذي يعايش واقعه ويؤسس للآتي والمؤمّل من القول والفعل.

والسؤال الذي سننطلق منه هو:

هل خاتمية الرسالة المحمّدية تؤسّس وتهيّئ الوجود من أجل نهاياته، أم أنها بكل بساطة تؤسّس لغياب الوحي من أجل وجود إنساني مسؤول مسؤولية مطلقة؟

---

[1] تعتبر النظرية الدائرية من بين هذه النظريات التي بحثت في مشكلة الحضارة، واهتمت بدراسة وظيفتها والبنيات التي تتشكل منها، والمراحل التي تمر بها والأسباب التي تؤدي إلى نشأتها وتطورها وانهيارها، ويمثل هذا الاتجاه العلامة ابن خلدون (1332-1406)، وجيوناني فيكو Vico (1744 – 1688) ومالك بن نبي (1905 - 1973)، وأسوالد شبنغلر Oswald Spengler (1936 - 1880) وأرنولد توينبي Arnold Toynbee (1889 - 1975 (وهؤلاء المفكرين رغم الخلاف الذي نلحظه بينهم في تصورهم للحضارة سواء على مستوى الرؤية أو المنهج، يتفقون على مسلمة نظرية قوامها أن المجتمع يتبع مسارا دوريا متتابعا، وأن مراحل حياة الدولة أو الحضارة تشبه مراحل حياة الإنسان، أي دورة تبدأ بالميلاد أو النشأة وتنتهي بالموت أو الفناء، وتضم النظرية الدائرية اتجاهات كثيرة منها: التفسير الواقعي بشقيه التاريخي والاجتماعي عند ابن خلدون والتفسير البيولوجي عند شبنغلر ومبدأ التحدي والاستجابة عند توينبي. [مقال في موقع: بوابة علم الاجتماع]

أي لماذا لم نفهم الخاتمية بمعنى المسؤولية وافتكاك المبادرة، واكتفينا بالنظر إليها على اعتبارها نوعا من فلسفة الموت؟

الخاتمية كما نفهمها إعلان صريح بأن الوجود، والإنسان على وجه الخصوص، ما عاد يحتاج تدخّل الوحي فيه، فقد أوتي كل ما يتطلبه فعل الاستخلاف، وكلّ ما يكسبه المسؤولية المطلقة عن وجوده وعن أفعاله. لا نص بعد اليوم يرشد ويصحّح، ولا أنبياء يعدّلون الخطى ويرسمون السبل، " ... رفعت الأقلام وجفت الصحف " [الترمذي].

الوجود البشري تجاوز مرحلة الصبا والمراهقة، بل وحتى مرحلة الكهولة، هو اليوم قد تجاوزها وأدرك كل ثمارها. فإنسان اللحظة الراهنة، بتجاربه وتاريخه المديد، والمعلوم والمدقّق جيّدا، قد صار شيخا قد خبر الحياة بكل أبعادها، والتجارب بكل عبرها وآثارها، فهو لذلك يتحمّل المسؤولية المطلقة في رسم المسارات المتبقية، واختيار النهايات المتحتّمة. لا مفاجآت في الانتظار، والنتائج معلومة مسبقا تكذّب كل الادعاءات والتبريرات الزائفة.

لذلك فالخاتمية لا تؤسّس لانغلاق دائرة الوحي ولا تحيل على البعث. وإنما هي تذكير وإعادة لتجربة (جنة آدم) مع فارق بسيط، ولكن جوهري، أن الشجرة الآن غير مشار إليها بأداة الإشارة (هذه). فإنسان هذه التجربة هو من يحدّد الأشجار التي يجب أن لا يقترب منها، فقد أوتي كل ما يحتاج من معايير ومقاصد يستطيع وفقها أن يعلم الخبيث من الطيب، وليس (له /عليه) أن ينتظر علامة تضبط وتتدخّل في خياراته، فقط هي النتائج كما سيقرؤها ويتقبلها.

فإبليس لن يحتاج أن يتخفّى في جلد أفعى كي يغويه وزوجه، فقد صارت له ذرية وأتباع من جنس البشر يقومون بكل الأدوار.

الخاتمية إذن بداية جديدة دشّنها القرآن الكريم، وحدّد معالمها وكل خصائصها محمد صلى الله عليه وسلم، كما كانت (الأسماء) بداية تجربة آدم عليه اسلام، وسيرته في الجنة المعيار والمحدّد لخصائص وجود الإنسان وتجربته في الحياة.

وهذا الفهم هو القادر، في تصوّرنا، أن يعيد للخطاب الديني توازنه وفاعليته. فلا إنسانية ولا كونية بخطاب يعتبر الدين/ مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قد انتهى إلى الكمال الذي يعقبه ولا بد النقصان. وينظر للرسالة المحمّدية باعتبارها التأسيس والتشريع ليوم البعث. تصوّرات جعلت الخطاب الديني في أغلب تمظهراته توصيفا لما بعد الموت، ترغيبا وترهيبا، وطلبا للسلامة وحسن الختام. فكان أغلب مدارات التشريع قواعد فقهية .....

الفصل الثاني

المفاهيم

1/ الحق / الحقيقة.

مع هذا المبحث نبدأ في مواجهة أولى تحدّيات تأسيس الخطاب الديني ومعاركه الطاحنة. طبعا في هذه المعركة الخطاب الديني لا يهادن ولا يستسلم، بعض المناورات ربما. فالتعالي، الذي فصّلنا فيه القول خلال الفصل الأوّل (التصوّرات)، يمنح الخطاب الديني مرتكزات يراها غير قابلة للنقاش، ومقصية لكل مجادل يكابر حيالها.

ولفظة (الحق) وردت في القرآن الكريم في ثلاثة وثمانين ومائتي موضع (283)، جاءت في أكثرها بصيغة الاسم، نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة:119]، وجاءت في اثنين وعشرين موضعاً بصيغة الفعل، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [فصلت:25]. ومعاني اللفظة في القرآن الكريم متعددة كلها تحيل على الصواب والصدق، وربما في بعض المواضع تختزل معنى الإسلام والتوحيد والعدل والإنجاز والتأكيد[1].

﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ [الأنعام:73]، النص القرآني إذن يعلنها صراحة أنّه منتهى القول وكل الصدق، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، قال تعالى ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس:32].

كل هذه التأكيدات تمنح الخطاب الديني ضمانات هو يراها مبطلة لكل جدل يمكن أن ينال من صدقية خطاباته، ويقينية مرجعيّاته، فقوله مشدود إلى رب العالمين، الإعجاز يحصّنه والتاريخ شاهد على انتصاراته.

[1] لمزيد التوسع يمكن الرجوع إلى عديد المواقع المتخصصة في القرآن الكريم، كذلك يمكن تتبع اللفظة في الأحاديث النبوية الشريفة، فالأمر جد يسير.

كلام جميل لا يمكن أن نزايد عليه إلا ببعض الهوامش التي تخفت نتيجة نصوص شديدة الكبرياء.

طبعا لن نعارك اللغة ورجالها، فهي حمّالة وجوه، وقومها تجّار بامتياز علّمهم المربد أن الطلب يشتد كلّما أغربت اللفظة، نحن سنعود للوحي في كلّياته ومقاصده كي ننظر كيف يقدّم ذاته ورسوله، وماذا يطلب بالتحديد، وهل يطلب يقينا واستسلاما، وبالتالي هو يضبط ثوابتا ومسلّمات، أم هو يخط مسارات للبحث والتأسيس؟

سؤال طويل يبدو معقّدا ولكن جملة التصوّرات التي ضبطها الفصل الأول (الإنسانية / الكونية / الخاتمية)، تضعه ضمن سياقاته، وتشرح بالتدقيق المرامي والإحالات التي يقود إليها. ونحن نعتقد أن جملة القراءات التي قدمناها لتلك التصوّرات تسمح لنا أن نقدّم قراءتنا حول خصائص الوحي وجملة الكليات والمقاصد التي يتأسس عليها، والتي يمكن أن نطلق مصطلح (التشاركية) كعنوان جامع ومعبّر عن طبيعة العلاقة التي يطلبها الوحي ويؤسّس لها.

منذ لحظاته الأولى مع سيدنا آدم عليه السلام كان الوحي شديد الوضوح في التصريح عن مطلوباته من هذا الكائن، وفي تحديد مستويات الحضور والتدخل، بل أكثر من ذلك هو لا يخفي عنه ولا عنّا المساحات الشاسعة التي يضعها تحت تصرّف من أقسم بالمولى عزّ وجل أن يُفشل المهمّة، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:82]، وأن يستميل هذا المخلوق وذريته إلى جانبه. أي أن يتحدّى خطة الاستخلاف وقوانينها.

يبدو أن المعركة لم تكن حول (الحقائق) ولا (النهايات)، وذلك شأن المشاريع الكبرى، اجتراح المسارات وضبط شرائع الوصول والنجاة هي الأساس.

قصة آدم لا تحيل على النهايات إلا بما هي مغامرة كبرى أطرافها فاعلة بكل اقتدار، مسؤولة بكل معنى الكلمة. الكل يملك نصيبا من القدرة، والكثير من الإرادة، مع مساحات شاسعة للفعل وتثبيت حقائق مساعدة.

لذلك تكون (الحقيقة) من هذا المنظور الذي ننطلق منه مسؤولية بالأساس، ليس مجرّد أحجار تلقى على الطريق للإزالة والإبعاد، أو للاستغلال وللاستثمار.

الوحي في تصوّرنا بهذا المنطق يتعامل مع الوجود ومع الفاعلين فيه من دون مصادرة ولا حواجز، الكل من حقه أن يبتكر ويوظف الوجود بكل قوانينه من أجل حقائقه ومسلّماته. هي المسؤولية في أجلّ مظاهرها. المولى عزّ وجلّ يضبط (معركة الوجود) بكل حيادية الخالق الحكيم.

السجود متطلّباته كثيرة، وللأسماء آفاق شاسعة لا حدود لها، وسلطتها ليس من شيء يعبّر عنها أفضل من سجود الملائكة لهذا الكائن الذي فُضّل بها.

من هذه الزاوية نعتقد أنه يجب النظر لمبحث الحقيقة في الخطاب الديني، وهي زاوية توقفنا على ذلك السراب الذي أربك المسارات، وهو العشا الذي ألم بالأبصار، والكبر الذي سكن النفوس.

لنكن واضحين؛ الرسالة ليست معركة حقائق.

معجزة الوحي، التي هي تعبير عن كمال الوجود، أنه يقبل كل القراءات، كأرض خصبة تقبل البذر وتمنحه كل الشروط كي يُخرج ما فيه من ثمار.

إن ما يبنيه تصوّر امتلاك الحقيقة، وما يرسّخه مفهوم الحقيقة الواحدة أخطر على الفكر الديني مما قد يحاوله الرافضون له بكل دغمائية، وهي حالة ونتيجة نحن نعيش اليوم، ومنذ أحقاب مديدة، أسوء آثارها، ونتخبط في إيجاد المخارج المنقذة.

إن علاقة تتأسّس على رسولية تنظر إلى رجالاتها وتعاملهم كأنبياء مصلحين في أقوام متخاذلين أو متآمرين، هي علاقة أبعد ما تكون عن مجالات المعرفة وقضايا التحرير. علاقة تعزف على أوتار الغرائز والوجدانيات، وتؤسّس لما يسميه مصطفى ملكيان " الانشداد الشبقي "[1] في التعامل مع المعتقدات والعبادات. علاقة لا تبحث في الدين إلا عن الإشباع الوجداني والأمان العاطفي. لأن خطابا يقدّم الدين، وقد أكتمل بناؤه بتلك اللبنة التي مثّلتها الدعوة المحمّدية، كسفينة نوح، النجاة في ركوبها، خطاب يؤسس للطمأنينة الزائفة، حيث يباع الأمان والسلام بعملة قوامها التخويف والتخوين؛ التخويف من الخطأ والتعدد والاختلاف وعدم الولاء، والتخوين لكل مختلف وكل سائل وكل حيران!

عندما يتأسس خطاب ديني على أساس أنه ترجمان القرآن ومرآة الحقيقة، فإنه يبني سفنا تؤبّد جهل الناس بالسباحة، وتقدّم الحياة كطوفان آت لامحالة لا نجاة منه إلا لمن ألتحق بتلك السفن.

---

[1] ملكيان، مصطفى، التدين العقلاني، ترجمة، عبد الجبار الرفاعي و حيدر نجف، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط 1، 2012، ص 9.

خطاب لا يرى في العقل إلا دوره الوعظي الرقابي، عقل الشهوات والرغبات أن تنفلت، وعقل الأفكار والاسئلة أن تتماد وتسيء الأدب وتهدّد الأمن.

الدين وهو يبني الوجود بكل ما فيه على العدل والقانون والنظام، ويُحرّم الخالقُ على نفسه تجاوز كل ذلك بصريح العبارة: " يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي ... "، الدين في نسخته الأخيرة وبكل تلك الضمانات، يهب للإنسان حقيقة هي اليوم من صنع يديه وثمرة خياراته ومساراته في الوجود، حقيقة هي مفهومه للعدل، ومحصّلة احترامه للقانون، والتزامه بالانضباط.

" الحق " كما الشمس لا يملكها الناس إلا كقبس منها يوقدون منه نارهم ويلتمسون به ضياء دروبهم. الحق كما يتجلّى في الوجود، ويتحقّق من خلال الذات الإلهية. هو ضمانة الوجود، وتصريف الأسماء، إعرابها ومعاني الجمل الإنسانُ من يدققها ويمنحها حركة وحياة.

الحق يتنازل عن سلطته طوعا بمجرّد أن يتلقّى التحيّة من ذلك الإنسان الواعي بدوره والمفاخر بحرية إرادته. الخضوع للحق هو تمام الحرية والقدرة. الإنسان لا يحتاج إلى التخفي وراء الكسب كي يداري تخاذله، ويتبرأ من عجزه.

من حق كل فرد، وكل جيل، وكل أمة أن يكون لها حقيقتها، وقبسها، وبيتها التي تبنيه بأحجارها. الحق لا ينكر كل ذلك ولا يبطله لإنه قد يمس قدسية الذات وتعاليها، من قال أن الإنسان بكل علومه واكتشافاته التي تكاد تبطل ظلام الليل، قد استغنى عن الشمس.

لذلك نحن نعلنها صراحة أن خطابا لا يعلّم الناس السابحة بتعلّة أنه صانع سفن أوتي ألواحا ودسر، هو خطاب يغتال الإنسان ويبطل دور رسالة الدين في الوجود، خطاب يكرّس الكبر والاستعلاء ويبني في النفوس الخذلان والانكسار.

2/ النص / اللغة.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:2]

امتلاك زمام اللغة لا يعني المقدرة على السيطرة على المعنى أو مسايرة نسق الخطاب، ذلك كان بعض الوهم ومازال الكثير منه يسكننا.

لغة القرآن منذ لحظاتها الأولى، وبرغم أنها لا تحاول الخروج عن المعتاد من التلفظ إلا ببعض التدبير، وضعت فرسان الكلام أمام مأزق تصنيف هذا الكلام. ماذا يقولون فيه، الوليد بن المغيرة كان شاهدا عليهم.

فهذا الخطاب السلس أربك كل خطط الصدّ والممانعة. منذ البداية تحدد الخطاب كإشكال يصعب السيطرة عليه ومواجهته، خطاب مستقل بذاته يجعل بينه وبين النبيّ مسافة، حتى وكأنّه كالشاهد أو الحكم على ما يدور بين النبيّ وقومه.

الخطاب القرآني ينتقل بين المخاطبين في سلاسة لا مثيل لها، الكل تجمعهم الصورة ليأخذ كل منها حظه، والمكان، والمعنى، الذي يستحقه.

هذه المسافة بين الكلام والوسيط (النبيّ صلى الله عليه وسلم)، وهذا الحضور القوي في المشهد المبصر جعلت الخطاب القرآني منذ بداياته يعلن ميلاد نسق في القول مخالف تماما لما وقع التعارف عليه. التعالي كان مسلمة معترف بها وإن حاول القوم أن يبرّروا عجزهم باختلاقات مفضوحة، ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان:5].

الخضوع والمتابعة كانت مفروضة، فالنص كما أسلفنا كان يعايش الواقع لحظة بلحظة، يداخل الوقائع ويشارك التجاذبات. النبي صلى الله عليه وسلم نفسه كان يعايش ما يلقى إليه ساعة بساعة. الوحي كان تجربة لكن ليس بذلك المعنى الذي يذهب إليه محمد مجتهد شبستري[1]، فمعايشة النبي للوحي ليس يُشترط أن تكون كلية في تجلّياتها، وسابقة بلحظتها. نحن نعتقد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يعايش الوحي مزامنة مع الناس، ليس له من السبق والخصوصية إلا ما يفترضه دور الوساطة، غير ذلك هو يعايش تجربة الوحي بكل أبعادها الإيمانية والمعرفية مع الناس. هو كان يتلقى الوحي كنبيّ ولكنه يعيشه ويتفاعل معه كإنسان. وهذه المزامنة وهذه المكابدة هي من صميم البعد الإنساني في التجربة الدينية باعتبار أسّها دربة الإنسان على التفاعل الإيجابي مع الوجود ومعايشة الواقع بكل شروطه. قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق:6]. والأنبياء قدوة في ذلك قبل كل شيء. لذلك تتجاوز النبوّة أن تكون مفارقة للعنصر البشري وترفّعا عن الخضوع للشرط. مباحث العصمة والإعجاز التي بالغ فيها القوم حتى جعلوا من النبوّة طورا من أطوار الوجود المفارق، وكل ذلك بزعمهم حماية الوحي وتحصين النص من النقصان، وما دروا أنهم بذلك قد أصابوا الدين ذاته في مقتل.

لذلك نحن نزعم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان كما الآخرين يعيش التنزيل نجما بنجم، ويتلقى المعرفة وربما في كثير من الأحيان تكلّفها مع الناس ليس هو يسبقهم دائما. لذلك هو

---

[1] الرفاعي، عبد الجبار، **الهرمنيوطيقا والتفسير الديني للعالم**، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، 2017، ط 1، ص 434.

يُسأل فينتظر، ويُجانب التقدير الأصوب فيقع التعديل والتصحيح وربما العتاب والتوجيه. وليس كل ذلك، كما أسلفنا، بقادح في مفهوم النبوّة إلا عند من يراها خروجا عن طور البشرية.

وظيفة التبليغ ليست تشترط الإحاطة المسبقة بكل حيثيات الرسالة، ولا هي تفرض أن يكون المرسَل قد طلب تلك الوظيفة أو استعد لها أو تكلّفها. القرآن كان حاسما في تلك النقطة بل ويسحب تلك الميزة على جميع الأنبياء.

طبعا النبوّة، تفترض وتشترط تهيئة وتزكية، والرسالة تشترط ولا بد صفات ومميّزات، وذلك مبصر بجلاء في سيرته صلى الله عليه وسلم، وفي سيرة بقية الأنبياء.

إذن مضمون الرسالة ليس شيئا متطابقا مع ذات الرسول، فهو آلية من آليات التنزيل والتحقّق، ولا من متمّمات الرسالة أن يكون علمه وتجربته متجاوزة لما تحتاجه لحظته.

النبيّ يشارك قومه مكابدة التجربة وتكلّف المعنى. يعيش لهم ومعهم تجربة الوحي، الإضافة والاستثناء أن لحظة النبوّة هي فرصة للتدخل المباشر والتعديل.

مناورات التنزيل لم يكن يُفترض بنا أن نذهب في قراءتها تلك القراءات المرتعبة، فالمسألة غاية في البساطة والسلاسة، كذلك تعامل معها جيل الدعوة والتنزّل، لم يكن القوم يشعرون بالحرج ولا الارتباك لأنهم كانوا على دراية ووعي بضرورات البناء والتأسيس، لاحقا الصراع حول الاستفراد بالنص وفرض المعنى جعل الخطى خائفة والثقة في النص متلجلجة.

لذلك فخطاب الرسالة، الذي هو لغة التنزيل، كان يجمع بين متقابلات متعدّدة، فهي لغة مفارقة ليس من جانب مصدرها فحسب وإنما بمعنى تجاوزها لحظتها بما هي تعبير عن تجربة تخترق

الزمان والمكان. فالرسالة نهر يمتد من لحظة الوعي التي باشرها الإنسان الأول في شخص آدم عليه السلام، إلى ما يأتي من قابل الزمان، وبالتالي فالحاضر والمعاش في الرسالة لا يعبّر عن ذاته إلا بتلك اللغة المدركة والمتحكم فيها من قبل مخاطبيها، أمّا الرسالة فتعبرها تمما كما يعبر النهر قرية أو مدينة لا يمكنها أن تدعي أن ذلك الجزء من النهر هو ماؤها الخاص الذي لا يشاركها فيه أحد.

الدين حركة في الوجود لا يمكن للغة معينة أن تحيط به إلا شيئا من بعض التوظيف، كتلك الشرائع التي تفتح على النهر كي تأخذ ما به تقيم مدينتها.

اللغة بالنسبة للرسالة، والعربية بالنسبة للقرآن الكريم، نوع من الفهم والتفسير الذي تحققه اللحظة كي يمكن الاستفادة من الرسالة. الإشكال أنه وقع التعامل مع اللغة العربية بكثير من التعالي والتقديس واعتبرت تجسيدا وتعبيرا مطابقا عن الوحي، مما قاد إلى مباحث الإعجاز، بل أكثر من ذلك وقع التسامي بالعربية حتى أصبحت لغة السماء ولغة أهل الجنة، شيء من العبث والتحجير على النص.

طبعا لا يمكن أن ننكر أن كل تلك القوانين التي وضعت للإمساك باللغة سواء كشروط للفهم وتفسير الخطاب أو كشروط لإنتاج الخطاب، قد ساهمت في وضع النص القرآني أولا في سياق الحضور الفاعل وبعد ذلك وضعه في سياقه المبهر، لكن كل ذلك تم على حساب

الرسالة التي وقع التحجير عليها واختزالها في الإسلام في معناه الضيق الذي يمكن أن نسميه " الإسلام الفقهي الكلامي ".

العربية بكل آفاق المعنى وضوابط التركيب ومحدّدات الفهم هي ولا بد من نتاج القرآن لو نعلم. كل تلك الترسيمات تبقى فهوم ومقاربات للقرآن الكريم ولا يمكن بحال أنّ ما وضعناه من شروط للفهم ومراتب البيان أن تصبح حقيقة القرآن الذي لا ينفك يكرر منذ لحظاته الأولى أنّه فعل في الوجود وإمكان في اللغة لا يتحدد.

لذلك يجب الحذر عند التعامل مع قواعد اللغة واختيارات أصحاب الكلم لأننا حينها نكون قد وقعنا في " لزوم ما لا يلزم " ،مثل ما فعل محمد شحرور عندا حاول الهروب من الترادف فألزم نفسه بنقيضه فضاقت به المعابر وهو يحسب أن جنانه وارفة. وكأن اللفظة قدرها أن تقول نفسها أو أن تخالف أختها وغير مسموح لها أن تخالف ذاتها وفي الموقع ما يغري.

مباحث لغوية كثيرة أثقلت النظر وكبّلت الخطى وكلٌّ يحسب أنّه بما يكثر من القواعد والمقدّمات، وبما يتسلّح من البديع والمحسِّنات يمسك بلغة القرآن ويسوسها.

القرآن الكريم يرفض كل ذلك، وإن قبل الجميع وما ردّهم خائبين، ف " لعبة المعنى " ليست مجرّد حرب بين الكلمات والأشياء. القرآن الكريم منذ البداية كان شديد الوضوح، هو بالأساس " رسالة " يقرأها الأمّي وإن احتجّ وأعاد أنّه ليس بقارئ، ويؤمر المدّثر بالتبليغ وإن سمع من الناس ما يكره.

الرسالة قدر ومسار لا يتوقف. من فجر التاريخ انبثقت واضحة المعالم متسامحة الخطى، لذلك على اللغة أن تعي أنّها ليست المالكة في هذه الزيجة، غير وعد باحترام الأهل وما تعارفوا عليه، أما ما يتولّد عن هذه الزيجة فليس لأحد أن يدّعيه.

اللغة ولابد مسارات في بناء المعاني، وقواعد في نحت الكلمات، ونسق في التلفظ، شيء من الضبط والالتزام اصطلح عليه الناس كي يكون التواصل والعمران.

القرآن الكريم كلمة لكنها أشبه بالسيد المسيح، صبي من غير تزاوج، وكلام بدون تعلّم، فالقرآن منذ لحظة " الغط الأولى " أعلن أنّه يأخذ من الأقوام تلك الجماعة كرفقة للسفر، ومن اللغات " العربية " كراحلة.

لا اللغة ولا الجماعة هي من جوهر الرسالة، مسألة قد يرفضها الكثير ويرون فيها تطاولا، وهدما لأساسات الدين، غير أن نظرتنا الشاملة تعصمنا من ذلك وتدفعنا أن ننظر إلى كل البيت وأن نعترف للجميع بالفضل والاتقان.

فليست الرسالة عربية بمعنى التلازم والاشتراط .

الرسالة أخذت من القوم لغتهم كي تنهي سفرتها مع الوعد والضمانة أن تبقيها أرضا بكرا، فجاء القرآن الكريم خطابا " لا يخلق على كثرة الرد "، كلّ من دخل عليه ظنّه حلاله، وهذه من روعة الخطاب وفتنة النظّار.

للبشر في قولهم لزوميات هم يحتاجونها ليتحدّد المعنى ويسهل التواصل ويتحقق المقصود.

المطلق أو الرسالة، وهي تتوسل لغة العرب وأعراف الجماعة، ترفض أن يكونا عليها مهيمنان. فالمعنى في القرآن الكريم مفتوح غير هائم، بأسبابه غير مشروط. أسباب كتلك التي ضبطها الغزالي وهو يحكي فعل الخالق في الوجود.

فالقول بتحكيم لغة الأعراب في فهم القرآن الكريم وضبط معانيه قول وإن كان خرصه مغرٍ إلّا أنّ ظلاله غير مديدة ليس يقدر أن يستظل بها الكل غير سياق التنزيل وخطاب اللحظة وجواب سؤال الجماعة. اللغة العربية سياق مساعد، وثوب ساتر جميل، ولكنها غير الذات ولا حقيقة الصفات والأفعال.

من أبرز إكراهات اللغة وحتميتها علينا تلك المعقولية المفترضة في كل خطاب يُبنى على احترام شروط اللغة. فاللغة وكأنها تلزم من يسير على هداها أن يكون خاضعا لعقائدها وما تبنيه في الذهن من تصوّرات يحكمها الزمان والمكان و منطق الأسباب. لذلك نجد أن الخطابات " المفارقة " كثيرا ما تفتح لنفسها أبواب القبول والاعتراف من خلال التحرّر النسبي من الشرط اللغوي، انظر مثلا خطاب الكهان والسحرة، وحتى الشعراء أنفسهم يسمحون لأنفسهم بمسافة هي شرط المغايرة والإبداع. اللغة الصوفية لاحقا ستركب تلك الموجة من أجل الهروب من سطوة المراقبة.

القرآن الكريم وإن استعمل ذلك " الحق " بأساليب وطرق مبتكرة، حاولت علوم البلاغة أن تضبطها وتفصل القول فيها، إلا أن الطفرة الحقيقية للنص القرآني لا تكمن هناك، إذ لم يحتج

أن يخرق الخطاب أو يعمي المعنى كي يحظى بالقبول والاعتراف ويضمن لقوله الشيوع ودور التأسيس.

لعبة المعنى كانت الأبرز، توظيف كل ما تتيح اللغة من إمكانيات وتسمح به من تجاوزات من أجل بناء سياقات في القول تمنح المعنى مداه الواسع وتحول دون انغلاقه.

المسألة في تصورنا تتجاوز مجرّد التحدي والتعجيز إلى مستوى آخر من البناء المعرفي الرامي إلى لفت انتباه أصحاب اللغة أنّ معقولية القول ليست أحكاما ملزمة بإطلاق يخضع لها النص القرآني وإنما هي اعتبارات توافقية تجاريها الرسالة من أجل التأسيس لمعقولية أخرى هي أشمل وأكمل، وهي مطلوب الدين من الإنسان، وشرط فعله الصائب، ذاك الذي يدافع الشرط ويتفاعل معه دون أن يقع في حبائل مكره واغراءاته.

القرآن الكريم يعيد بناء الخطاب بما يناسب مقاصد الرسالة ويلائم احتياجات اللحظة بما هو منتهى مقدور القول على التبليغ. فاستحضار الأقوال السابقة والمتعارف من القول يعمل فيه الحاضر أكثر مما يحضر فيه السابق. هناك إصرار وجهد لا ينقطع لإحلال ما يسميه توشيهيكو إيزوتسو " المعنى العلاقي " في مقابل ومجاوزة لـ " المعنى الأساسي "[1].

الرسالة تُبنى بالأساس على مراكمة التجارب بإعطاء اللاحق منها زخم كل السابق كشرط من شروط مجاوزة الصد والعنت الذي يمثله الواقع.

---

[1] إيزوتسو، توشيهيكو، **الله والإنسان في القرآن**، ترجمة هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة،2007، ط 1، ص 43.

اللغة ساحة معركة وأرض بناء وتشييد، منذ لحظته الأولى الوحي يتأسّس على ما يقال، قال تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:1]، كإشارة معيارية أن هذه علاقة مبتكرة يقيمها الوحي مع بني البشر.

مع القرآن الكريم نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم تتجاوز المفهوم السابق للقيادة، هو وسيط بأتم معنى الكلمة. ذاته، كما ألمحنا سابقا، كانت مدمجة في التجربة بكل أبعادها وشروطها، والخطاب كان في غاية الفاعلية، قويّ الحضور، شديد التأكيد على استقلاله المطلق.

كان التواصل هدفا أساسيا اشتغلت عليه السور والآيات، لم يسمح القرآن بأي انقطاع، التنجيم كان آلية من آليات التواصل الفعالة التي كانت تعمل كمحفّزات ومناورات في مدافعة الواقع وبناء الفكرة والبشر.

الواقع في القرآن الكريم لا يُستبدل، والأصنام لا تكسر، محمد لا ينتصر لـ ﴿الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾، ولا يطرد الباعة من أمام الكعبة، إنّها المفاهيم والتصوّرات المبتكرة " تعمل على الكلمة بقوة كبيرة "[1]، تعيد تشكيل خطاب يتجاوز الخضوع للصحراء القاحلة، وتفتت المعنى[2]، خطاب يرفع رأس الأعرابي نحو السماء كي ينظر إلى النجوم ويتدبّر فيها، وينبّهه إلى كل تلك الجبال التي تحيط به ليعلّمه الثبات واليقين.

---

[1] إيزوتسو، **الله والإنسان في القرآن**، ص 47.

[2] الزغواني، محمد عبد القادر، **القول بالطبائع في الكلام الإسلامي** (الجاحظ نموذجا)، متوفر على الانترنات، ص67.

صحيح القرآن الكريم استعار لغة القوم وما تعارفوه من قوانين النظم ولكنه حقن كل ذلك برغبات وآفاق ما كان القوم يظنون أنها تجوز في تلك البقاع وتنفذ في ذلك المناخ، الحيرة والشك لا يوجبان الطرد والتهمة، كما أنّ الجوع وشظف العيش لا يبرّران الوأد ولا يدعوان إلى (الاعتفار). إكراهات تحمّلها أقوم بتلك الأصنام التي أحاطوا بها الكعبة يحسبون أنّ الرب يكون من خلالها أرفق بهم، فتردّى حالهم حتّى أصبحوا يخافون جن الوادي، يستعيذون منه.

القرآن بكل تلك الاختراقات التي يقتحم بها اللغة ينبّه الأعرابي إلى " القدرة الكامنة في الكلمة"[1]، ينبهه أن لغته يمكن أن تتجاوز واقعه وأن تفتح له في الوجود أكثر مما هو مبصر، وأن الكلمات اشد وقعا وأمتن حبالا. الكلمة نجاة وأمان، وأساس المعرفة والعلاقات. الوجود نفسه يمكن أن يكون خاضعا بالكلمات.

الكلمة طاقة وفعل في الوجود قبل أن تكون مجرد أصوات تعبر عن الموجود والمحسوس.

لكن للأسف ستفقد اللغة الكثير من بريقها وقدرتها والنص ترتفع أسوار شروطه بإكراهات التجاذبات السياسية ثم البلاغية.

الصراع حول امتلاك النص الذي أجّجته الصراعات السياسية ورسخت استتباعاته المجادلات الكلامية، ثم بعد ذلك التنافس حول زينته، ضيقا معابر المعنى. عقلنة ما هو بالأساس وجداني روحي، وضبط ما هو اختراق لحدود اللغة والتعبير عموما، كانت من بين الأسباب المباشرة التي جعلت التعامل مع القرآن يتركز على اعتباره " تجربة عربية " خاصة ... منفتحة.

---

[1] أمير، عباس، **الإعجاز البياني** (التبيان – التكوّن – القراءة)، دار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن، د ت، د ط، ص 45.

ذلك ما تبقى من قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:28]، وقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:107].

الكتاب جمع القوم، وسد الكثير من أبواب الاختلاف، ومنح العرب الشرارة التي سيوقدون منها نار حضارتهم، ويسيرون على نورها مسافات بعيدة، لكنه أيضا وضع الوحي ضمن اطار ضيق؛ السيطرة على الواقع، ومتابعة الإنسان في فعله، مجاوزة الواقع والانهمام بالرغبات والطموحات كان الكثير منها مدانا محجّرا عليه إلا ما كان في باب " الضرورة "، تثوير الواقع ورفاهة الإنسان مسائل وضعت في مقابلة النص وكلياته وشروط فهمه وآليات الاستنباط منه. تكفي نظرة سريعة لعلم أصول الفقه حتى نتبين تلك الأسوار التي ارتفعت حول النص كي تحول بينه وبين علاقة متجدّدة مع الوحي. الوحي كفاعلية في الوجود وكأنه توقف.

التفسير، والقراءة، واستنباط الأحكام، أصبحت وكأنها استنساخ للنص، لا حياة بالمعنى الثوري الذي جاء به الوحي إلا ما أوهمنا به انفسنا أنه مواكبة النص للواقع. صحيح كان الواقعُ يسحب خلفه النصَ، بدون احترام في كثير من الأحيان، لتبقى لعبة التفسير والتأويل مربكات لغوية للمباهاة والتحيين، شيء من وهم الحياة وادعاء الفاعلية.

التفسير استطاع أن يستوعب النص، والفقه كذلك نزعم أنه يحيط بالواقع، أما الدين كرسالة لفاعلية الإنسان المستخلف في الأرض، فيتراجع وتتحنط مبادئه وتتكلس عقائده من أجل وهم الطمأنينة، والأمن، والسلام المزيف، كذلك السلام المزيف الذي يدعو له المغتصب والمطبع.

يبدو أن اللفظة وهي تكتب، والوحي وهو يحجر عليه داخل اللغة، يفقد الدين الكثير من فاعليته الثورية، وتسجن الرسالة داخل الملة، ويتولى " المختارون " القيادة واحتكار التعبير عنها وتمثيلها.

سلطة الكلمة المكتوبة أقوى من سلطة الكلمة الملفوظة، ألم يدّعي اليهود أن عزير ابن الله وهو ما لم يدّعوه لموسى عليه السلام برغم أنه كليم الله، وذلك لأن عزيرا جاءهم بالتورات مكتوبة.

من يمتلك الكتاب يمتلك السلطة، عمرو بن العاص كان أول من تفطّن لذلك.

*****

كل هذه الأسس التي أطلنا الوقوف عندها، وهي بالأساس أحد مباحث كتابنا السابق (علم التفسير محاولة في القراءة والفهم)، حرصنا أن تكون عباراتها كأعمدة ثابتة نؤسس من خلالها منظورنا الجديد للغة في مجال الخطاب الديني من أفق التواصل إلى آفاق النظر وآليات التفكير.

فاللغة كمفهوم تأسيسي للخطاب يتجاوز أن يكون مجرّد سياقات تواصلية تمد الجسور بين المتحاورين أو بين القارئ والنص.

والقرآن الكريم، ونحن نرده إلى آفاقه نحرّره بدءا، ونتشاركه نتيجة، وتلك كما أسلفا في كثير من كتاباتنا، المقصد الأسمى للقرآن الكريم، وللوحي عموما.

المشاركة إذن هي المفتاح الذي من خلاله نحاول أن نشرّع أبوابا أغلقتها اللغة عندما تعاملنا معها كضوابط للمعنى، وسواتر للمجاوزة والاختراق. فاللغة، وقد كان الأعرابي البدوي القيّم عليها والمتحكم في آفاقها، اتخذت مسارا صارما حيال محاولات الاختراق.

القرآن الكريم كان أولى محاولات التنبيه على هذا الإشكال والتأسيس لمقاربات التطوير والاستثمار. طبعا النسخة التي اشتغل عليها القرآن كانت في بدايات تشكّلها، نسخة خام، مجرّد أعمدة تحفظ مواقعها الذاكرة، ويشدّها إلى جذورها كل ذلك الكبر العربي والحميّة القبلية، الهجاء والمدح كانا الإغراء الأكبر كي تحفظ كل قبيلة لنفسها نسخة بها تكابر.

اللهجات العربية، بما هي عوائق في الظاهر، الوحي عرف كيف يوظفها باقتدار من أجل نسخة جامعة، نسخة مرنة تقبل الجميع وتمنحهم المباركة.

القراءات كانت مساحات شاسعة للمعنى، كانت تكتيكا سياسيا من أجل تخطّي كل ذلك التشظي الذي يحكم الوجود العربي، كذلك كانت عملية استباقية لما سيحاوله صنّاع النص ورجال السياسة... وهل بينهما فرق؟

علم القراءات وهو يُقصى على هامش شروط الفهم كان الباب الأخير الذي أغلق حتى لا يتقاتل الإخوة الأعداء، ويتمزّق المصحف على السيوف... هكذا قيل كتبرير! يكفي أن يكون هناك بعض الثراء في المعنى، والطرب في المغنى النادر الجميل.

النص وهو يتشكّل ضمن سياق الصراع على الاستحواذ على الواقع وعلى الرأسمال الرمزي كان مفهوما جدا أن يكون الضبط والتحكم في التعدد والاختلاف هو المعيار.

الصراعات السياسية والعقلية الفقهية كانا السوط الذي ألهب ظهر العقل العربي الوليد حديثا، ومارسا عليه ضغوطا شديدة كان ولا بد أن تفعل فعلها وأن تنشئه على استبطان الخوف من التعدد والاختلاف، واستصحاب الرقيب أينما ذهب. هكذا ستُفهم أسلمة العقل، وتُعمّم التقوى على كل ممارسة كضمان للقبول.

اليوم، ونحن نبحث للخطاب الديني عن محفّزات، من الضروري أن نعيد للغة مكانتها ودورها الذي لعبته في احتضان الرسالة والسفر بها. بمعنى أن لا ننسى أن الإسلام دين عالمي، العربية محمل من محامله، وليست شرط عبور ملزم. فأخطر ما يمكن أن يواجهه دين سماوي أن يصبح دينا قوميا منغلقا على ذاته.

طبعا التحدي ليس هيّنا، وما تراكم عبر تاريخنا الحضاري، وما تشكّل حول الدين من تصوّرات ومفاهيم، وما سيّج به النص من أصول وقواعد، قد يجعل كل ذلك تحدّيا مصيريا للإسلام ذاته. ولكن نحن نزعم أن ذلك واجب لا خيار حياله. العرب اليوم، والعربية تبعا، ينسحبون رويدا رويدا حتى عن ذواتهم، وتفشل محاولات جعل اللغة عنوانا تسويقيا عن الفكر، حتى في مجالات اللغة الأكثر تجليا.

إعادة الاعتبار للّغة عبر ربطها بالقرآن والوحي، مناورة لم تعد تمنح الكثير ولا تساعد، حتى في تقديم صورة مشرقة ومغرية عن العربية، خصوصا بعد النجاح الذي يحققه الإسلام بين أقوام لا يعرفون العربية أصلا. الإسلام وكأنه يعلن عدم احتياجه للعرب وللعربية، وأنه قادر بقوة الوحي الذي فيه أن يتخطى موانع وحواجز اللغات.

نحن لا نريد أن نعترف بكل ذلك، ونصر في عناد أخرق أن قوة الإسلام ومعجزة القرآن في عربيته، وأن اللغة هي شرط العبور إليه. وكل ذلك هروب من تحمّل المسؤولية والبحث عن بدائل تأسيسية وترويجية.

الإسلام ينساب من بين الأصابع، والقرآن يبهت في المصاحف، والشعائر تتكلس في الجوامع، ويعجز الخطاب بكل الحميمية التي ندعيها أن يحرّك السواكن ويقيم جسور التواصل. ونلعن وسائل التواصل الحديثة، والمؤامرات، خصوصا الداخلية، التي تحول أن يكون للمعجزة أثرها فينا.

طبعا لن ننساق في خاتمة حديثنا في مسارات جلد الذات فقط نحيل على كل تلك المحددات التي وضعناها في مستهل حديثنا والمتعلقة بشروط وآليات بناء علاقة مثمرة بين الوحي واللغة. الرجوع إلى مضمار التسابق الحضاري ليس ترفا ولا موضوعا للنقاش والبحث في الجدوى، إنه مسألة بقاء أو زوال. القرآن لن يحمينا ولن يشفع لنا، القرآن أيضا لا يحتاجنا وليس وجوده واستمراره متوقف علينا. هو كالماء يعرف كيف يشق طريقه نحو الأراضي الخصبة، أما تلك الجدباء فمصيرها أن تصبح فلاة، عبرة لكل مرتحل. ولنا في عاد وثمود والعماليق وجرهم وطسم وجديس... دروس وعبر.

3/ الأصل – المقصد: من أجل ثوابت متحركة.

من هنا تبدأ السفرة، ويشتد الترحال. فالعقل قد تنبه مبكّرا أن القراءة والتأسيس يشترطان أصولا ومقاصد يُشد لها القول وتنير للعقل دروبه.

منذ البدء افترض الإنسان أن التعلق بالشجرة قد يهبه ﴿ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه:120].

كانت جنة الأسماء بامتدادها، وبكل سلطة المعرفة، قد أربكت الإنسان الأوّل فكان الخوف قبل الغرور، واختيار الإقصاء(هابيل / قابيل) قبل تعلّم التعايش.

الفلاسفة الأول / الطبيعيون، عبدة الأصنام ومظاهر الطبيعة، الجميع كان يبحث عن شيء ثابت يكون منه الانطلاق ويتأسس عنده الأمان. كان التردد أمام كل هذا الانفتاح والتعقيد مربكا، لذلك الكل كان يسارع للبحث عن ثوابت يكون منها النظر والبدء.

الأسماء وحدها لا تكفي، هكذا قرّر الإنسان، يجب أن تكون هناك شجرة وأن يذوقها الإنسان. الدين نفسه فُهم في غالب الأحيان على أنه بحث عن الأوّل والتأسيس له كحلقة الباب، منها يطرق، أو يوثق عندها الإنسان ... لا يهم !

يبدو أن فشل التجربة الأولى فُهم كسوء اختيار لا كنتيجة للتنازل عن استقلال الذات وخياراتها. وكذلك كانت تجربة النصوص المؤسسة في الديانات السماوية، والنص القرآني على وجه الخصوص، لها ولا بد ﴿ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴾. العربي هكذا اعتاد أن يحدّد حدود أراضيه ومد بصره، ومنتهى ما يملك.

طبعا هذا المدخل لا نطمح من خلاله أن نقود القول نحو إدانة التأصيل والبحث في المقاصد والكليات، ومن يجرؤ، وإنما نحاول أن ننبه على خلفيات قد تسترّت، وإكراهات قد تحكّمت، ولزوميات قد أرهقت، قادت جميعها إلى ما نحن عليه؛ أصول أشبه بالسدود بعد أن حُمّلت أوزارا هي منها براء.

الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية تنبّه إلى كثير من ذلك المأزق الذي وقع فيه الفكر الإسلامي، والتشريعي على وجه الخصوص، عندما طالب تلك الأصول بيقينيات لا تملكها.

إن الخوف من التعامل المباشر مع النص والسماح لمقاصده وكلياته أن تعبّر عن ذاتها من خلال تفاعله مع الواقع المتجدد كان يعكس، أو لنقل، هو نتيجة نظرة دونية للقادم من الأزمان. إن هوس المحافظة والتمسك بصخرة الواقع الأولى أفقد النظرة للنص عمقها وحكمتها. لذلك سيكون قول الإمام الأول، ورأي كل من هو أقرب ولو بيوم إلى لحظة التنزيل، هو المرجع ومناط الحكم! الخطوات الأولى ستصبح المتحكّمة في الأنساق اللاحقة.

الخط والخيار، والمذهب لاحقا، كان الهدف والغاية الأولى، كيف نحمي قول الإمام من النسيان والمذهب من الاختراق. عملية بديهية ليس فيها ما يعيب إلا تلك المخادعة التي لا يمكن أن تكون بريئة كل البراءة، بأن وقع نقل كل تلك الأشجار وإعادة غرسها حول النص ذاته باعتبارها حدوده وسواتره.

طبعا ليست هذه دعوة للتجاوز والتقليل من شأن المجهود التأصيلي الذي تم وكان من أجلّ إبداعات حضارتنا، حتى عدّه البعض المعبّر الحقيقي عن الفلسفة الإسلامية. لكن مع ذلك نحن في هذه المحاولة نجتهد في بناء تصوّر يزيل عن الطريق أشواكه، وندعو إلى نظرة ثاقبة تجمع في مشهد واحد النص بكل مكوّناته والواقع المعاش بكل تطلّعاته.

للنص ثوابت قد ترسّخت، وأشجار قد امتدت عروقها في أغوار تربة حضارتنا، فليس من الهيّن اليوم اقتلاع كل ذلك، أو العبث به بشهوة الصبيان، لكن المسؤولية تعلّمنا كيف يمكن أن تتحرك الثوابت، وتُطعّم الأشجار من أجل أن نمح البيت مساحات أرحب والأشجار عمرا مديدا. ثوابت الفكر متحركة ولولا ذلك ما وصلت البشرية إلى ما وصلت إليه من معارف واكتشافات. منذ القدم الطفرات وكبرى الاكتشافات، وحتى الفلسفات، كانت عبارة عن ثوابت قد تحرّكت. يكفي أن نستحضر كيف أن الإنسان لم يكتشف ذاته إلا عندما أزال الأرض عن مركزها وألقى بها كرة تائهة في الفضاء الفسيح !

الخطاب الديني يحتاج ثورة كوبرنيكية تزيل عنّا الكثير من الأوهام والمخاوف التي تمنعنا أن ننظر في النص وفي الوحي نظرة مختلفة عن تلك التي اعتدناها.

النص لن يفقد توازنه لو نزعنا عنه كل تلك السواتر المانعة، كما أن الأرض لم تفقد مكانتها ولا جمالها عندما أخرجت من مركز الكون وأصبحت تابعا من توابع الشمس.

إن الاعتراف بكل تلك الصراعات المذهبية والتجاذبات السياسية التي رافقت غراسة الأشجار وارتفاع الأسوار شرط ساسي لرؤية متصالحة مع الذات، ولن تكون البتة جارحة أو مزعزعة.

فالأسس والقواعد جهد بشري من المهم جدا الإحاطة بكل حيثيات التشكل والترسيم. وليس يعيب الأسلاف ولا الأسس ذاتها أن يُدرك غورها وتستبان مقاصدها وأهدافها وسياقاتها.

4/ الفقه / التشريع.

هذه من أعقد المسائل والتحدّيات التي واجهت، ولا تزال، الخطاب الديني منذ أن باشر الوحي حضوره في الوجود البشري. القرآن الكريم لن يتجاوز هذا الإشكال بل بالعكس سيعترف به ويقرّ بأنه التحدّي الأكبر الذي واجه الوحي، وكان الأرق الأشد للأنبياء جميعهم.

تطرح المسألة اليوم تحت عنوان (مأسسة الدين)، أي تحويل الدين والوحي بنصوصه وحركته في الواقع إلى مجموعة من التشريعات والضوابط الاجتماعية، والمؤسسات النافذة في المجتمع. طبعا المأسسة مصطلح حديث وإحالاته على الدولة بمفهومها الحديث، ولكن نحن هنا نستعمله ضمن سياقه الأساسي كحركة ورغبة في السيطرة وتنظيم الواقع، وفرض شروط وأساسيات الإصلاح.

منذ نوح عليه السلام كان الوحي " مواجهة " بالأساس، والملأ من القوم هم خصومه ومنتهى سهامه. وهو ما يمكن أن نطلق عليه اليوم: حركة تغيير وثورة على الواقع من أجل تغيير أشكال التنظّم.

ومن هنا يبدأ الإشكال الحقيقي في قراءة الدين ودوره في حياة البشر.

طبعا نتجاوز هنا كل الطروحات الفلسفية حول " ينابيع الدين " وظاهرة التدين حتى لا تأخذنا السياقات بعيدا عن غرضنا، فنحن هنا نتقصّد الديانات السماوية كما وقع تقديمها من خلال القرآن الكريم، باعتباره التجلي الأخير للوحي، والمراجعة الأخير لمسار الرسالة والنبوة في الوجود البشري، وبالتالي فنحن نسائل القرآن حول هذه الظاهرة، ونجتهد أن نكشف إخفاقات

الخطاب الديني في قراءة المسألة، ونحاول أن نرمّم ما نحسب أنه تداعيات رؤية كان فيها الكثير من الحسابات القاصرة.

والبدء يكون وجوبا عبر تعديل زوايا النظر وأساسيات القراءة لظاهرة الوحي عموما.

هل رسالة الوحي في هذا الجانب (مأسسة المجتمع) هي نفسها منذ بداياته إلى نهاية الرسالة مع محمد صلى الله عليه وسلمّ، أم أن هناك مسارات ومنعرجات يجب إعادة قراءتها واستخراج محدّداتها وخصائصها؟

إن الوحي كرسالة في الوجود له محدّد أساسي وجوهري، نعتقد أنه الأكثر أهمية والأشد معيارية في فهم ظاهرة الوحي والتعامل معها. فأغلب من نظروا في ظاهرة الوحي ينطلقون من اعتبار المفارقة والتعالي محدّدات أساسية في ماهيته، وبالتالي وقع ضبط العلاقة بينه وبين البشر على أساس أنها (علاقة عمودية) بكل ما تعنيه هذه اللفظة من أبعاد وخصائص وقع لاحقا تثبيتها وتحصينها بمفاهيم عديدة مثل مفهوم القداسة وجميع إحالاته ... وزواجره أيضا. لذلك يصعب اليوم أن نشق للوحي مسارات جديدة، على الأغلب ستُفهم كإنكار وتطاول. اتهامات تغفل معطى جوهري في هذه المسألة، وهو أن الوحي أولا لا يمكن أن لا يكون منسجما مع وظيفة الاستخلاف التي وكّل بها الإنسان في هذا الوجود، وثانيا لا يمكن أن لا يحترم الوحي ويراعي كل ما وقع تمكينه للإنسان من مساحات فعل وقدرات، وخصوصا ضمانات مسبقة تعطي المسؤولية كل شروطها.

الإنسان، هذا الكائن الذي مثّل وجوده اللحظة التي أعادت الترتيب في السماء قبل الأرض وضبطت الإمكانات، لم يكن حدثا عابرا ولا مجرّد صنف جديد في مخلوقات السماء الخاضعة، ولا حتى ضمن تلك (العاصية) بمنحة وتأخير. فقد كان الإنسان تجسيدا للإرادة وللفعل وللاستقلال.

كل ذلك التميّز لا يمكن البتة أن يكون الوحي والنص غير معترف به ولا مساوقا لمساراته.

إذن كيف بدأ الارتباك في النظر لوظيفة الوحي ؟

كيف انتهى (الفهم) إلى (قوانين)، والتفاعل إلى رغبة في السيطرة، ليصبح الإشكال الأكبر لثقافتنا: النص، وأقصي الواقع ومعه الإنسان أن يكونا محط الأنظار إلا لاحقا، وكوسائط من أجل التعامل مع النص وحسن فهمه، أي مجرّد حواشي وهوامش للتوسّع في استحضار النص.

إن الرغبة الجامحة في معالجة لحظة الفوضى التي رافقت بدايات النظر والتعامل مع النص، والإرث النبوي عموما، ومحاولات السيطرة على كل هذه البراعم المتفتحة داخل مجتمع غير متجانس بالمرة، كل ذلك كان كالمرجل، الكل كان يخاف أن يقترب منه، والجميع يتوقّع الأسوء منه، لا أحد في تلك الفترة بالتحديد نظر للاختلاف والتعدد كشيء مستحسن.

" الاختلاف رحمة " كفلسفة في النظر والممارسة ستتأخر بعض الشيء على عكس ما يوهمنا به البعض. لكن طبعا على المستوى الفردي كانت هناك بعض الاستثناءات المتميّزة خصوصا

على هامش دوائر القرار والخطاب الرسمي، وبالتحديد بعيدا عن مراكز القيادة بشقيها المعرفي والسلطوي.

حالة الحرب طابقت بين النص والممارسة خصوصا عندما اعتبر النص معيارا محدّدا وسلاحا ماضيا. السيوف وهي ترفع المصاحف ستثبته كإشكال أساسي في الدين. ومن هناك بدأ الانزياح، واختفى المجتمع كحقل اشتغال للوحي والقرآن على وجه الخصوص. الواقع سيرتد كانعكاس للنص وتجلّي له، طلبا وإدانة.

لا أحد في تلك الأثناء كان ينظر للإنسان كإشكال وجودي أو اجتماعي يمكن أن يكون منطلق خطاب معرفي تأسيسي، مجرّد استتباع لفهم النص وتنزيله. معركة النص ألهت الجميع. والساسة على وجه الخصوص هم من استثمروا ذلك، وثبّتوه كخطاب مهيمن على النص.

نتيجة كل ذلك سيصبح (الفهم) الذي كان واضح الدلالة، ومنضبط الإحالة في النص القرآني والممارسة النبوية، سيصبح مشاريع قوانين وأنهجا ضيقة للضبط والسيطرة على الواقع، وعنوانا بارزا للدين باعتباره معرفة الحلال والحرام.

ووفق هذه المعايير الجديدة ستعاد قراءة النصوص وتنزيل الأفعال والممارسات. فلم يعد الدين ثورة الواقع على انحرافاته، ولا ثورة الإنسان على ظالميه ومستعبديه. سيصبح الدين مجموعة من الأحكام التكليفية تضبط السلوك، والأحكام الوضعية تقنن التفكير والنظر.

وهكذا بدأ تفتيت الدين كأحجار، لا لتعبّد بها الطرق والأنهج ويستقيم معها السير، ولكن كأحجار للرجم والتطهير.

النص وهو يتحوّل إلى مجلّة قانونية فقد بريقه وأصبح أهله رجال حسبة، وأعمدة جوامع يلتف حولها العوام تصبّرا من أوجاع الحياة. بل أخطر من ذلك الدور أن يصبح الكثير ممن ينطقون بآيات هذا الدين سياطا في يد السلطان يجلد بها الخارجين، وأبواقا يروّج بها زيف سلطانه.

الغزالي (450 هـ / 505 هـ) كان من بين الذين تفطنوا لذلك الموت السريري الذي آلت إليه علوم الشريعة وحاول (إحياء علوم الدين) وبعث بعض الدفء في تلك القوانين، لكن يبدو أن (جبة الصوف) التي نسجها الغزالي لم تكن قادرة أن تبعث الحياة في علوم تعوّدت لباس الاستبرق والحرير. الفقه اليوم لم يعد مجرّد فهم ورأي، هو المذهب والإمام والسلطة والمنصب. حتى المقاصد وهي تحاول مع الشاطبي (ت 790 هـ) أن تبعد عن النص مربكاته ما استطاعت أن تعارك كل تلك الأعمدة الراسخة والأصول الثابتة، كما الأصنام أشد فتنة للنفوس الضعيفة من الأفكار والمبادئ الحكيمة.

فالتشريعات بكل تفاصيلها وجزئياتها هي اليوم المقصد الأسمى للرسالة بها تحفظ بيضة الدين ويستقيم المجتمع. فالفقه هو الحكم، والنص فقط هو الدليل. فهم الواقع واستنباط قوانينه، ومعرفة الإنسان وتحديد أولوياتها مباحث غرقت في تفاصيل الفقه وتشنّجات الكلام، ابن خلدون نفسه وهو يدوّن للأمة تاريخها وجد نفسه يتنازل عن الكثير من قوانينه، ويغترب عن روحه النقدية. الأسوار يا صديقي جد مرتفعة، والعوام تعشق التفاصيل، ومن القصص تختار أشدها إبهارا وغرابة. لذلك بقي الدين حتّى عند ثوّار اليوم معرفة الأحكام، وتجديده: فقه الأولويات.

أما دراسة المجتمع وفهم الإنسان فالإخفاقات جديرة أن تعلّم الكل أن الجدار لا ينفتح بمجرّد أن يرسم عليه باب بألوان زاهية.

لا أحد اليوم تجرّأ أن يعلن أن النص بالأساس مشروع قراءة للواقع، وفرصة تحرير للإنسان.

الكل يريد أن يتقرّب إلى صاحب النص بالإنسان كقربان، وبهجر الواقع كرمز لتعفف والنكران.

5/ الإعجاز والتحدي: الصدّ والتفاعل

النص القرآني منذ الآيات الخمس الأول كان مربكا مستفزا لمتلقيه الأوّل، كان الغط قبله والتدثّر بعده. الرسول الكريم احتاج أن يحتمي بزوجه خديجة رضوان الله عليها كي يستعيد قراره. وقد بقي الأمر كذلك وإن خفّت وطأته.

محفِّز، مقلقل لكلِّ سكونٍ في حركة الوجود، لكنّه أبدا أن يكون مانعا للنظر والسؤال والمحاولة، كيف وأوّل لفظة فيه { اقرأ }. النصّ مُتَحَدٍّ مستفز، ولكنه لا يطلب العجز، بل يدينه.

يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في المقدّمة العاشرة: " لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت بما بلغته من صُبابة نزرا، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن "[1].

ولعلّ تلك هي أولى مربكات هذا المبحث، فكل قطاعات الثقافة الإسلامية تقريبا كانت لها أنظار ومقاربات في فهم مسألة الإعجاز باعتبارها ركيزة أساسية في بنية النص، ومطلب متحتم في صدق نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم.

لن نحاول هنا أن نراود النصوص فقد حُصّنت بقراءات تراكمت عبر قرون ضُبطت خلالها الألفاظ بما ضيّق مجالها التداولي وساق المعاني نحو فكرة أساسية، أشعر اللحظة بالخوف من تقليبها، والارتباك في صياغتها.

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مجلد 1، ص 103.

فحقيقة الاعجاز أنّ القرآن يُستدل على تعاليه وأنّه ليس من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم بعجز العرب على أن يأتوا بسورة من مثله.

*/ قال تعالى { وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } [البقرة:24/23].

*/ قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ } [هود:14/13]

*/ قال تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [يونس:38].

*/ قال تعالى { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [الإسراء:88].

ولعل أوضح الأحاديث وأصحها في المسألة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " ما مِنَ الأنْبِياءِ نَبِيٌّ إلَّا أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أوْحاهُ اللَّهُ إلَيَّ، فأرْجُو أنْ أكُونَ أكْثَرَهُمْ تابِعًا يَومَ القِيامَةِ " [البخاري (4981)، مسلم (152)].

" المعجزة " ضرورية في كلّ رسالة، بل هي بكل تلك القراءات والمحامل التأويلية التي ارتفعت حول النصوص ذات العلاقة قد أصبحت من ضمن بنية الرسالة وشروطها. لذلك كان لزاما النظر والبحث في هذه الرسالة الخاتمة على ما به يثبت هذا الشرط.

طبعا مفهوم المعجزة، وتجاوزا لبعدها الانطولوجي، ليس من السهل بناء خطاب معرفي حولها بدون الانطلاق من خلفية إيمانية، باعتبارها نوعا من الاستثناء والتدخّل المباشر في حتميّات الوجود وقوانينه.

من هذا المنطلق، فيما نحسب، يبدأ أرقنا في فهم وتنزيل " المعجزة " داخل سياق الرسالة المحمّدية. فالخاتميّة والعالمية صفتان تأسست عليهما الاستراتيجية القرآنية في بناء التصوّرات والمفاهيم، وتوجيه الخطاب.

ومن بين أكثر المفاهيم صلابة وحضورا في القرآن الكريم مفهوم الثبات والاستقرار للوجود الضامن للمعرفة، والسير في الأرض كواجب وأمانة، وتحميل الإنسان المسؤولية المطلقة فيما يقع في الكون مما هو من نتائج خياراته وأفعاله، كتشريف واعتراف بهذا الكائن المتميّز عن بقيّة الموجودات.

فالنص القرآني وهو يؤكّد على اكتفائه بذاته في بناء الرسالة وتوفير شروط تنزّلاتها وكأنّه يُقصي المعجزة من سياقه، ويعلن أنّه لا يحتاجها. فالوجود البشري اليوم قد أدرك من النضج والقدرة على التعامل مع المفارق ما ليس يحتاج معه المتعالي أن تكون له آثار يصدم بها صلف الإنسان وتكبره.

من هذه الزاوية نريد أن ننظر في " المعجزة " باعتبارها من بين الإشكاليّات التي داخل النظر فيها الكثير من الارتباك والخوف، مما جعلها من بين العوائق التي بنت للنص اسوارا مرهقة.

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام... ومن ينكر ذلك !!!

الرسول صلى الله عليه وسلم قالها صراحة " ما مِنَ الأنْبِياءِ نَبِيٌّ إلَّا أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَرُ...".

ربما كان هذا الحديث بكل الوضوح الذي يتبدّى لنا هو منطلق الانزياح عن القراءة الصائبة للمسألة، ذلك عندما طابقنا بين لفظة " الآية " ولفظة " المعجزة ". فهناك مسافة دلالية بين كون آيات الأنبياء معجزات وبين كون آية الإسلام هي القرآن.

وصدور القرآن الكريم عن المولى عز وجل كآية عن صدقيّته، وآيات كمضمون لرسالة الإسلام لا يعنى أنّه من نوع تلك المعجزات التي أجراها المولى عز وجل على يد رسله أو بحضورهم. فارق قد يبدو غير ذي بال ولكنه عند التدقيق والنظر في استتباعاته يضعنا على الجانب الآخر من المسألة.

ليس القرآن آية لأن العرب لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله أو أن يصوغوا القول مثل صياغته، فالقرآن قول مفارق بالأساس، أي صدورا، يتجاوز بما يحيل عليه من ورشات وإشكاليات واقعه، وتلك مسألة أطلنا عندها التوقّف عندما تحدثنا عن المكي والمدني وأسباب النزول ضمن كتاب (علم التفسير).

ولذلك فالقرآن الكريم يفارق قول البشر ليس في الدرجة كما أطنبت النظريات البلاغية التي راحت تبحث في القرآن عن التراكيب والأساليب والفصاحة، وغيرها من محسنات القول لتثبت أن القرآن معجزة لا يستطيعه العرب. مفارقة القرآن في النوع، فهو خطاب يخترق الزمان والمكان و التجربة ليصوغ قولا بحسب شروط اللغة وحدودها، وبنية العقل وآليات اشتغاله. فالقرآن الكريم يتجاوز اللغة ليس لأنه يجمع أفضل ما فيها وإنما يتجاوزها لأنها ببساطة غير قادرة أن تساير تعاليه.

وكنتيجة لهذه النظرة يصبح التحدي الذي جاء في النصوص القرآنية ليس هو من ذلك النوع الذي صاحب معجزات الأنبياء، لأن أولئك كانوا يريدون تبكيت الخصوم وقطع تخرّصاتهم، أما تحدي القرآن فهو يطلب التواصل ويستفز من أجل التفاعل.

{ وَلَن تَفْعَلُوا } تلك الـ (لن) الزمخشرية، ليس لتأبيد العجز وعدم القدرة وإنما هي لدوام المحاولة من أجل شرط التواصل. هذا هو مطلوب القرآن الأساسي: التواصل، فعل القراءة. لذلك ليس بدعا أن تكون أول كلمة نزلت { اقرأ }. الإيمان والاستقامة استتباع ومسؤولية.

وتلك الـ (لن) ليست للذات مانعة ومؤيّسة أن يكون لها قول، وكيف يمنع الإنسان مما به نال شرف سجود الملاكة وأمانة الاستخلاف في الأرض.

لكن عندما ننظر في مبحث الإعجاز في كتب علوم القرآن وقبل ذلك في المباحث الكلامية، التي بالمناسبة كانت السباقة في طرح القضية، نكتشف أن هذا المبحث يتجاوز محاولات الفهم والاستثمار للنص. فهذا المبحث أشبه بمعركة وجودية يخوضها النظّار باسم النص، سواء فيما

بينهم لتحديد طبيعة وتجلّيات هذا الإعجاز، وهي معارك لا علاقة لها بالنص بالأساس وإنما هي تجاذبات المدارس ووسائلها للسيطرة واكتساب السلطة بكل معانيها.

وكذلك هي معارك مع ذلك المخالف غير المعترف بما للنص من مكانة وحضور يجب الخضوع لها.

إذن " الإعجاز " معركة بالأساس ميدانها النص وأسلحتها جملة التصوّرات والمفاهيم التي بدأت تتشكل حول اللغة والعملية التواصلية، وحول الإنسان ذاته فهما وتنزيلا في الوجود.

لذلك يمكننا أن نعلن دون تردد أن " الإعجاز " في جوهره معركة الإنسان باقتدار. ومن منطلق ذلك التصوّر يجب أن ننظر في جملة المواقف التي تأسست داخل التيّارات الكبرى والخيارات العامة. وعندما نقول إنّ الإنسان هو أساس المعركة فإنّنا نحيل على المبحث الأهم الذي مثّل المنطلق الأساسي للفكر الديني عموما بكل أبعاده الكلامية والأخلاقية والتشريعية.

إن خيارات النظر في **فعل الإنسان** ودوره في الوجود هي التي حدّدت مسارات النظر إلى النصوص وأقامت القواعد والأسس التي من خلالها تشكّل الفكر الإسلامي. فتأخر بروز معركة النص، برغم كل الإشكاليات التي رافقت عمليات الترسيم، تقف فيما نحسب شاهدا على كل تلك الزلزلة التي مارسها الواقع الجديد على التصوّرات والمفاهيم التي رافقت تشكّل النص واستقرّت على عتباته.

فحتى والقرآن الكريم يوجّه الدعوة تلو الدعوة للمعاندين كي يأتوا { بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ } لم يكن يؤخذ عجزهم أو امتناعهم على المحاولة كدليل إدانة من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم أو

الصحابة، برغم كل التشهير الوارد في الآيات. وذلك فيما نحسب دليل على أن النص ذاته لم يكن مستهدفا إلا ببعض محاولات التشويه التي لم يأخذها بجدّية حتى مروّجوها ليقينهم أنهم حيال نص لا يمكن الطعن في تعاليه ومفارقته البيّنة.

وقد بيّنا فيما سبق من هذا البحث وفي كتاب آخر[1] أن الإيمان بوجود نصوص مفارقة ذات بنية عجائبية ومصدر متعال مسلّم به بين العرب (نصوص الكهان و قصائد الشعراء ممن كان لهم قرين من الجن).

الأتباع كذلك، وقد كانوا من تلك الثقافة على كل حال، لم يكن تعاملهم مع النص مشكاكا ولا إيمانا تسليميا سلبيا، بمعنى أن تفاعلهم معه وتوقيرهم له كان نابعا من إدراك عميق بأهمية وخطورة ما هو بصدد بنائه وتشييده، لذلك كان تفاعلهم غاية في الإيجابية والرغبة الجامحة أن يكونوا أطرافا فاعلة في النص.

كذلك النظر في بنية النص الداخلية توقفنا على حقيقة غاية في الأهمية ألا وهي أن القرآن الكريم ذاته لم يكن مشغولا بمسألة الإعجاز ولم يكن هناك إصرار وتأكيد دائم على أن هذا النص يؤسس لعلاقات ذات طفرة مع المتلقين، هو لا يزيد أن يكذّب كل تلك الادعاءات التي تحاول أن تماثله مع ما هو رائج من القول المتميّز (الشعر، أقوال الكهان، الأساطير). ثم هو بعد ذلك ينخرط في حوارات ومجادلات وتبسيطات من القول يطال بها كل مجالات الحياة ومستويات الإدراك لدى المخاطبين.

[1] الزغواني، **الطبيعة في الكلام الإسلامي** (الجاحظ نموذجا)، بحث منشور على الانترنات.

هاجس التعالي لا يبدو متضخّما لا في آيات النص ولا حتى في معاملات الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أقواله، ولا هو أيضا مبصرا في سلوكيات الصحابة وتلقّيهم للنصوص. كان التفاعل والحركة والاندماج الكلّي مع تجربة الوحي هي السمة البارزة للعلاقة مع النص في تلك المرحلة.

كان النص في خضم المعركة بالأساس، يقود الإنسان نحو خلاصه وانعتاقه من شروط واقعه. والحركة النشيطة " المتوترة " (بالمعنى الإيجابي للكلمة)، والتي ستصبح لاحقا مدانة أو على الأقل مشكّكا في فاعليتها وجدواها، كانت الواقع والفضاء الذي كان النص يبثّها في التجربة ويحض عليها.

عدم التفاعل مع الواقع والاستسلام موت للتجربة. لذلك حركة النص وتوتّراته لا ينقطعان، لا أحد يحاول أن يجعل للنص مسافة عن غبار المعركة بل بالعكس الكل يجد فيه الوقود والمنطلق للمدافعة، حتى الخصوم كانوا يتتبعون ما ينزل، يبحثون عن الثغرات للتكذيب أو حتى للتقليل من شأنه.

لم يكن النص شيئا معجزا بل شيئا مستفزا مربكا، يُحسن التجوال بين التفاصيل والأنهج الضيقة. يشارك في المعارك، يحصي الأعداد ويقسّم الغنائم، ولا يتردد أمام الهزيمة أن يعلن الخسائر ويكشف الأخطاء.

التعالي لا ينافي المشاركة، كما أسلفنا سابقا، والإعجاز لا يعني أنه لا يستلهم واقعه بكل ما فيه من حركة وتجدد ومراوغة.

ذلك هو الفضاء بكل اتساعه وحركته، الذي تشكّل فيه النص، وكانت فيه أولى القراءات وأولى التجارب في التنزيل والمعايشة. لذلك لم تبرز قضية اعجاز النص كموضوع ذال بال أو كمحاولة تدّعي أنها تحمي على النص مكانته.

النص وهو يعيد تشكيل تصورات العرب ويمازج ثقافتهم، ويخترق البنية المجتمعية كان في نفس الوقت يُعاد تموضعه وتشكله باستمرار . فالنص منذ لحظات خروجه من بيت حفصة وإلى لحظة رفعه فوق السيوف بدأ أولى مراحل الترسيم كحجة يمكن أن يعتمدها الواقع في ترسيخ وتثبيت توجهاته مهما كانت اختلافاتها وتناقضاتها.

النص كان النهج والسبيل الواجب اتباعه، لكن مع كل ذلك التصادم والتدافع الذي أصبح عليه واقع الأعراب الذين كانوا بالأمس القريب في شبه غياب كلّي عن كل تلك الصراعات التي تحيط بهم، سيُطلب من النص أن يساير كل ذلك وأن يستجيب لكل الاكراهات التي يفرضها الواقع، تحت مسمّى الانتصارات والفتوحات. بمعنى أن الخروج من النص ومفارقة مسارات التجربة الأولى كانتا أولى الخطوات التي قادت إلى الشعور بضرورة التركيز والبحث عن إعجاز النص وحفظ مكانته من عبث " الإخوة الأعداء " في المقام الأول.

التفاعل والمشاركة التي أرادها تيّار الاعتدال أن تسود العلاقة مع النص من خلال القوم بخلق القرآن[1]، وذلك الدخول المباشر على النص وغير الموقّر لمكانة الرجال الذي دشّنه الخوارج، كل ذلك حتّم على التيّارات المدعومة من السلطة، أو لنقل تحفظا المهادنة لها، أن تسارع إلى

[1] طبعا هذا الكلام لا يستبعد التوظيف الأيديولوجي والسياسي للمسألة. وذلك في تصوّرنا السبب الذي شوّه ذلك القول وحرم الفكر الإسلامي جملة الفتوحات المعرفية التي كان يمكن أن يقود إليها.

ضبط حدود العلاقة مع النص وشروط التواصل معه. القول بقدم القرآن والمبالغة في الانسياق وراء استتباعات ذلك القول كانت من بين ردود الأفعال الأولى.

إقحام النص في الصراعات السياسية كان ضربة البداية لمحاولات التحصين. فالتجارب قد أثبتت أن التدوين واستبعاد " النصوص الخاصة " لم يكن كافيا لجعل النص بعيدا عن التعدد والاختلاف.

معركة النص بدأت بعد حسم المعركة السياسية، لذلك لا عجب أن يكون النص في بداياته خاضعا لسلطان حركات المعارضة (المعتزلة على وجه الخصوص)[1]. ونحن عندما نقول النص فإننا نحيل بالاستتباع على جملة العلوم التي تشكلت حول القرآن الكريم وخصوصا علوم اللغة.

لذلك فإن النظر في مبحث الإعجاز باعتباره فقط تجلّيا من تجلّيات علوم القرآن هو نوع من الانزياح عن الإشكالية الأساسية لهذا النص التي هي امتلاك النص عبر ضبط شروط وحدود التعامل معه.

إن فتح الباب على مصرعيه نحو النص، كما تريد تيارات المعارضة والقراءات غير المنضبطة قد قاد سابقا إلى انزلاقات خطيرة بحسب التوجهات المحافظة، وليست تكفي النوايا البريئة والمنطلقات غير المتسيّسة أن تخفّف من أعباء المسؤولية، وإن حفظت " الصحبة " على الروّاد المكانة وعصمتهم من التشهير والتجريح.

---

[1] للتوسع انظر: محمد الفاضل ابن عاشور، **التفسير ورجاله**، دار السلام، تونس، ط 1، 2008.

فأبو ذر وهو يعيد تنزيل الآيات على واقعه، وابن مسعود، الثائر على سياسات التهميش والإقصاء، وهو يزرع بذور خطاب التحرر والثورة في الكوفة، كانا مثالين مجسدين لتلك العلاقة الجديدة التي بدأت تتأسس مع النص باعتباره في صميم تجربة الحياة، وأولى أسلحة مقاومة الفساد والانحراف.

الإعجاز كما نفهمه، وبعيدا عن كل تلك المباحث الموغلة في التجريد والتعقيد، كان محاولة لإبعاد النص عن التداول المتحرّر غير المنضبط وغير المسؤول أيضا. أو على الأقل قادت مساراته التأسيسية ومآلاته الكلامية أن صار مجموعة من الحواجز والمربكات التي تجبر على قفزات كثيرة اثناء السير عبر دروبه.

لا يمكن أن يكون القرآن الكريم طريقا معبدا يسهل عبوره، هكذا انتهى الاعجاز، لأنه حينه يفقد تعاليه!

كخلاصة نقول إنّ الإسلام من خلال القرآن الكريم ينزع عن مسار الإنسان آخر الحواجز التي تحول بينه وبين السيطرة على وجوده وحركته.

بالأمس كانت " الأسماء " ميزة الإنسان وشرطه كي يبدأ رحلة الوجود، اليوم " القرآن الكريم " هو هبة السماء إلى الإنسان كي يكتشف مسار الرجوع إلى لحظة سجود الملائكة اعترافا له بالنجاح في هذه الحياة. قال تعالى { وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا

صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [الرعد:24/23]. هذا من ردّ العجز على الصدر كما يحلو لشيخنا ابن عاشور أن يقول دائما.

ويبقى السؤال يلاحقنا: هل التحدّي هو لتحقيق العجز والتبكيت أم لطلب التفاعل والتواصل؟

الباب الثاني

الآليات

التمهيد

هنا سنحاول أن ننطلق من جملة تلك التصوّرات، التي حاولنا جهدنا أن نبرزها في الباب الأوّل، وأن نوظّف تلك المفاهيم من أجل البحث عن سبل وآليات تساعد على الارتقاء بالخطاب الديني، والخروج به من حالة العطالة والسلبية التي حالت دون الفعل والحضور.

التصوّر خارج سياق التأسيس والفعل سحابة في أعالي السماء لا تسوق مطرا ولا تمنع حر الشمس. والمفهوم من دون تداول في بناء الخطاب فضفضة فارغة كأزهار غير ملقحة، مجرّد أشجار خادعة لا تغري بالخرص.

لذلك سنطرق في هذا الباب مسائل وقضايا هي في باب النوازل بلغة الفقهاء، ومجال المشاغل والهموم عند المهتمين بالشأن العام والارتقاء بالمجتمعات.

هناك مناهج نظر يجب أن نبتكرها في التعامل مع خطابنا الديني تتأسس على تلك التصوّرات والمفاهيم. فما خطّه الأسلاف من مناهج، وما ابتكرته الثقافات على اختلاف مشاربها وتوجّهاتها، كل ذلك مساعد لنا، ولكن من الضروري أن نشق بأنفسنا شرائع تنبع من تلك التصورات والمفاهيم وتكون متساوقة مع كل الدفق والثورية التي حاولنا أن نكشف عنها.

فكم من أشجار أماتها العطش وينابيع كثيرة قريبة منها لم تجد شرائع تسوق لها الماء. ولعلّنا لا نبالغ إذا نحن زعمنا أن غياب المناهج والآليات وخطط العمل هي الأسباب الأبرز لما نواجهه من تحدّيات وجودية. فتراثنا، وخصوصا كتابنا العزيز، يزخر بالكثير من المفاهيم

والتصوّرات التي حاولنا في الباب السابق أن ننفض الغبار عنها، ولكن الإزورار عنها لم يكن لغياب العقول الراجحة، والبصيرة النافذة، والمدارس المستنيرة، وإنما التقصير كان في جانب المناهج، أو لنقل بعبارة أكثر دقة، لتحكّمات جعلت هذه المناهج دون الفاعلية المرجوة، قليلة الثمر، ضعيفة الأثر.

عدم احتكار المعرفة: الحرم والميقات

أن نصدر عن المتعالي، وأن نتكلّم باسمه، فتنة محببة تغري بالكثير من الكبر. فأن يرى الخطاب نفسه عمارة بأعمدة كما الجبال رسوخا وعلوّا فذلك يمنحه الكثير من الثقة، وربما التعالي والرفض للمخالف.

فنحن عندما تحدثنا سابقا عن (الحق / الحقيقة) حاولنا أن نلفت الانتباه قدر المستطاع إلى ضرورة التعامل مع ذلك المفهوم باعتباره ضمانة وجودية أكثر من النظر إليه كتجسيد لمنطلق القول ومنتهاه. فالدين وإن كان في (قوالبه) النهائية يستقر كمجموعة من الضوابط الوجودية والاجتماعية فإنه في جوهر حقيقته (روح)، طاقة تواصلية تعطي لكل شيء معناه ودوافعه. صحيح الإسلام يعطي للجانب الشعائري، والسلوكي عموما، الكثير من الأهمية ولكنه لا يؤسّس ذلك على قواعد من الخضوع والاستسلام، كما يُروّج عادة، وإنما على قواعد من النظر والتدبر... والمعرفة.

غير أن المعرفة التي حملت بذورها (الأسماء) كانت أقرب إلى الهاجس والانشغال منها إلى الحقائق والمعلومات، تماما كالأسماء التي أوتيها آدم عليه السلام، إمكانيات وطاقات وليس مجرّد ألفاظ وكلمات.

لذلك امتلاك المعرفة من منظور فهمنا للدين ليس يحيل وجوبا على امتلاك الحقائق والمعلومات بقدر ما هو اعتراف بفاعلية الوجود ودور الإنسان فيه كإرادة لا تتوقف عن (التذوّق)

والمعصية. وبالتالي يتجاوز فعل الامتلاك حدود السيطرة والتملّك إلى الرغبة في المعايشة والفعل. حتى مع الفشل أو العجز يبقى إمكان المعرفة قائما، وذلك روعة الشرط البشري.

المعرفة امكان لا يتوقف ولا يتحدّد.

من أجل كل ذلك، الدين، وخصوصا من خلال نظرية المعرفة، لا يجعل للمعرفة حدودا مسبقة ولا قيودا مانعة، وبالتالي هو لا ينتدب حرّاسا، ولا يصطفي طبقة من ملّاك المعرفة يتفرّدون بسلطانها. الأنبياء أنفسهم، ورغم كل الامتياز الوظيفي الذي مُنح لهم، بقوا في المعرفة ضمن الشرط البشري. طبعا مع بعض الاستثناءات الضرورية لفعل التبليغ.

المعرفة هي المشترك الوجودي الذي لا يدّعيه أحد، ولا يمنعه الدين كخطاب يتشارك (لعبة الوجود)، ويخوض التدافع وفق الشروط. بل هو لا يكف عن التذكير بضرورة احترامها.

المعرفة في الإسلام ركن ثابت عليه يتأسس كل الدين، وتأخذ الرسالة ثوبها الأخير.

الخاتمية كما أسلفنا تُحمّل الإنسان المسؤولية المطلقة عن وجوده ... وعن اعتقاداته بالأساس.

الدين اليوم يصبح أقرب إلى التجربة الإنسانية، والخيار المفتوح. فالرسالة مع الإسلام قد فتحت كل الأبواب والمعابر من أجل أن تكون للإنسان بصمته. فالإنسان قد أُعطي كل ما يحتاج لكي يشق طرقها الآمنة، حتى تلك الضمانات التي كانت بالأمس ألغازا ومعجزات هي اليوم تحت إدراكه ... وسيطرته.

القانون، والعدل، والحرية، هي كليات الإسلام من أجل أن لا يكون للفعل موانع وللإرادة عوائق، لا أشجار بعد اليوم تُمنع، ولا حيّة تتوسل الزوجة كي تعبر الحياة من أجل كدرها.

الحياة كبد، حقيقة ألقيت سافرة أمام الإنسان كي يأخذ حذره ويتحمّل تبعات خياراته.

اليوم المعركة الحقيقية، والتحدّي الأساسي هو (المواقيت الزمانية والمكانية)، كيف يختار الإنسان ويؤسّس لخطواته نحو (الحرم) مواقيتها.

فعندما يُصبح التدين فعل قراءة، والمعرفة مسار في الوجود، تصبح الأمانة أكثر من مجرّد تحمّل المسؤولية ومعرفة الحقائق، وتحقيق التطابق الذي يقود ولا بد نحو خيارات الإقصاء وادعاء الاحتكار.

المواقيت زوايا نظر، ونسبية مفترضة تؤسّس للتعايش والاحترام. الرسالة منذ أولى صراعات الوجود (آدم / إبليس – قابيل / هابيل) لم تجعل من الإقصاء سبيلا للتجاوز، بل بالعكس هي تفسح المجال إلى مزيد من التدافع، قال تعالى ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه:123]. الخطأ لا يُقصي، والمعصية لا توجب توقف المحاولة. فالاختلاف والتدافع هو القانون الأوّل والأساسي الذي بُني عليه الكون.

القرآن يعلّمنا فن التعايش، ولعبة التفاعل. هو يدرّبنا على المشاركة وتنظيم الاختلاف.

المدينة، وهي ترتفع بالتوازي مع شعائر الدين، أعطت للإسلام كل خصائصه ومميّزاته. صحيح لم يكن الأمر هيّنا ولا سلسا، فقد احتاج الكثير من المناورات والصبر. فالقبلية لم تكن مجرّد حالة اجتماعية، ولا حتى نظم سياسية هكذا عفو الخاطر. القبلية العربية كانت ذهنية مترسخة تشتغل وتنتج وفق معايير ومسلّمات غاية في الرسوخ والتسليم.

الانتظام الذي دشنته الهجرة كان بداية استحضار فكرة التعايش ضمن الاختلاف.

وثيقة / معاهدة المدينة كانت حجر الأساس لعملية التنظّم والاعتراف بالمختلف. لم يعد يعرّف الاجتماع كتجسيد للوحدة والتطابق، بل هناك مفاهيم مبتكرة أصبحت معايير للاجتماع والافتراق؛ الظلم مثلا أصبح من معايير التفرقة، الأخوّة كذلك توسّعت وتطوّرت كمفهوم، حيث تجاوزت الدم والنسب. الآن الفكرة والمجموعة أهم المعايير الموحّدة والرابطة للأمة.

الأصنام والتحالفات القبلية أصبحت غير قادرة على أن تواكب (المدينة)، أو حتى أن تجد لها مكانا في الرسالة في ثوبها الجديد. الإسلام كان حاسما منذ البداية، لا تنازل عن وحدة الحرم، والاختلاف والتعدّد معطى اجتماعي ومعرفي أساسي لا يتصادم مع وحدة البيت. تنقية البيت من كل تلك الاصنام ليس بالضرورة يقود نحو توحيد المواقيت، لا تعارض في الأمر.

محمد صلى الله عليه وسلم وهو يعيد للبيت مكانته وللرسالة مسارها النهائي، حرص أن يضبط (للحرم) مواقيت تنظّم التعدّد وتسيطر على الاختلاف، وتجعل منها زوايا متعدّدة لبلوغ الحرم. البيت / الحرم واحد لا يقبل التعدّد باعتباره يمثل المشترك العقائدي الضامن للحرية والعدالة، لا استعباد ولا ظلم، فالناس سواسية أمام البيت. أما السبل المؤدية إليه فهي تراعي القاصد ولا تشق عليه. لكل واحد بحسب جهته ميقاته ومساره الذي منه يكون دخوله للبيت.

لذلك فالمواقيت تمنح البيت امتداده واتساع أرجائه، وفي نفس الوقت تعطيه المهابة والتوقير في النفوس. كذلك النص بمساراته المتعدّدة يغتني المعنى لديه وتنفتح للقراءة سبل متعددة.

إن الوعي بهذه الآلية واستثمارها من أساسيات التجديد داخل الخطاب الديني، حيث لا سبيل إلى خطاب يحتكر المعرفة بمزاعم من قبل أن النص لا يُقرأ إلا من داخله، وبواسطة علومه، ولغته قصرا.

أكيد لا نقاش حول ضرورة توفّر شروط القراءة وأساسيات بناء الخطاب، كذلك لا يعني انفتاح الخطاب الديني على مختلف قطاعات المعرفة وطرائق الخطاب أنه خطاب مستباح ليس له حرامات تعصمه التطاول، ومسارات متحدّدة تفرض الانضباط والصرامة.

ما نريده وندعو إليه هو ضرورة أن يستفيد الخطاب الديني من مختلف العلوم خصوصا على مستوى المناهج وآليات القراءة والتأويل، باعتباره يرتكز على نصوص تأسيسية غاية في الكثافة والتعالي، ويهدف بالأساس إلى بناء خطاب واقعي يعايش هموم الإنسان ومشاغله.

الانكفاء على الذات والعيش في جلباب الماضي والنظر إلى المخالف كعدو متربص، كلها موانع قد أضرّت بالخطاب الديني ولا تزال تمنع عنه خيرا كثيرا. لا يزال الخطاب الديني ينظر بعين الريبة لكل من يمد يدا نحو النص أو نحو التراث عموما، وكأن الدين من الهشاشة ما يجعله في خطر أمام أي نقد.

الدين خصوصا في نسخته النهائية مع الإسلام وكأنه يعود إلى لحظات التلقّي الأولى عندما كان الدين حالة تفكير وتجربة معرفية أكثر من مجرّد اعتقادات وشرائع ومناسك، لعبة بالأسماء، وتجوال بين الأشجار من أجل اختبار صلابة الإرادة ونفاذ الاختيار، لم تكن الاعتقادات ضمن الشروط، ما كانت هناك مناسك، فقط الرغبة على المحك.

الحوار حينها كان أساس الخطاب، وحالة الارتباك هي الأساس الذي يبني من خلاله الدين الذات البشرية، ويقحمها وفقها في تيار الحياة.

الإسلام يحيل على تلك اللحظات ويبعث من جديد آلية الحوار كأساس متين لإتقان لعبة الأسماء. الإسلام يأخذ لحظة آدم عليه السلام بكل ذلك الدفق الذي انطلقت به مازجا إيّاها بكل تلك المكتسبات التي تراكمت من خلال تجربة النبوّة التي امتدت من نوح عليه السلام إلى السيد المسيح عليهم السلام جميعا.

الإسلام لا يهيمن بالمعنى السلطوي وإنما يوظف ما حققته البشرية المستنيرة بتجارب الأنبياء، ويعيد صياغة بنود الاستخلاف بهوامش كتلك التي أعطيها آدم عليه السلام، فقط فارق بسيط؛ لا مراجعات ولا تعديلات، مع خيارات غير قابلة للحصر لمجالات الاختيار.

نحن ننسى أنّ أغلب حوارات القرآن الكريم هي بالأساس انفتاح وتواصل مع كل الرافضين والمشككين. تقنيات الحوار يبدو أن الكثير منا لم ير فيها إلا التسامح. التفاعل والتأسيس لمناخ معرفي تشاركي كان معبرا ظنّه الكثيرون خطيرا وقد يفتح على المجهول، لأنه قد يحمل بعض الغمزات بالاعتراف، وتوزيع ما يسميه ابن عاشور " مقادير الصواب والخطأ "[1].

القرآن الكريم منذ حواراته الأولى مع إبليس يخترق كل سلطوية معرفية يمكن أن تبنى داخل الإنسان. فتقديم إبليس كمحاور عنيد لا تعوزه جرأة الدليل الذي يتبناه يفتح الباب على مصرعيه على طبيعة التدافع المعرفي الذي يقرّ به الإسلام.

[1] ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 172.

الحقيقة لن تكون معطيات جاهزة للتباهي وافتكاك المواقع. تتابع الخطوات داخل الجنة، وتجرّع مرارة الخطيئة هي التي تصنع الفارق وتصحّح المسارات من أجل حقيقة تنجي وتكون سلاحا في هذا الصراع المتحتم.

آدم لم يكن ندا لإبليس، ولم يعط معشار ما أوتيه ذاك الذي كان يعرف مدى قوته وسطوته. فقط هذا الكائن، الذي هو من عجينة الأرض الضعيفة والنتنة، كانت له ميزة هي الفارق، وهي نجاته، إنها فن التراجع والتنبه للأخطاء. إبليس لم يكن يحسن ذلك، كان رغبة جامحة للتباهي وتقديس الذات. إنّه الكبر والاستعلاء، واليقين أنه الأفضل وجودا ومعرفة.

وذلك كما نزعم الذنب والوهم الأخطر الذي تلبّست به قطاعات كثيرة من الخطاب الديني؛ أنه يمتلك المعرفة، أنه المرجع والمعيار. لذلك هو لا يرى نفسه معنيا بأي تدافع معرفي.

إذن ودون تبريرات كثيرة، ولا مسكنات خادعة نزع رداء الكبر والاعتراف بالآخر كذات عارفة لها " مقادير الصواب والخطأ " هو سبيل النجاة والارتقاء بالخطاب ... غير ذلك هو السراب.

عدم احتكار السلطة: التأسيس والترسيم

لا خطاب يبرأ من طموح السلطة ومسارات المذهب واغراءات الطائفة. رغبات لا تدان في أساسيّاتها ومنطلقاتها. هو الإنسان قد جُبل أن يكون لأقواله أسماء وأعيان بها يمتلك جنته ويعلن إرادته. الخطاب متسلّط ولا بد، فهل الدين كذلك؟

أي سؤال هذا !

طبعا نحن لا نحيل على تلك الحدائق الغنّاء التي يحلو للخطاب الديني أن يباهي بها عندما يبدأ الحديث عن حرية المعتقد واتهامات الإكراه والتسلّط التي تلصق به. البعد التعبدي التكليفي في الدين، وإن كان شق من السؤال قد يقود إليه لاحقا، لا يشغلنا هنا، وإنما نحاول أن نقرأ الوحي كخطاب تواصلي، هل هو كبقية خطابات البشر لا يبرأ من توجّهات ورغبات لبناء سلطة، وتحقيق تنزّلات في الواقع؟ أم هو غير ذلك، نمط من القول وسياسة في التواصل تعطي للهيمنة أبعادا أعمق من مجرّد السلطوية؟

بين التجربة والتجلي تمتد حكاية الوحي التي داخلت الوجود البشري حتى ما عاد هناك مجال للحديث عن مسافات فاصلة بين العالمين، وإن كانت الشروط والقوانين ليست تتطابق دائما. هل هو الإنسان بما أوتي من آفاق قد يقدر على الاختراق؛ اختراق الواقع والزمان، والوعي

كذلك، فتكون له في بعض الأحيان أطوارا تتجاوز ما تعارف عليه البشر من حدود ونهايات، فيتجاوز التواصل حدود التلقي نحو آفاق أرحب من المشاركة والفعل؟

أم هو الوجود له في بعض الأزمان أصداء لطفراته، وتجلّيات لمساراته، فهو يعلن عنها دون استئذان؟

طبعا لن نسمح هنا لإغراءات العجيب الخلّاب أن تأخذنا بعيدا في تقصّي تجربة الوحي، لأن كل ما أردناه من الملاحظات السابقة هو أن نلمّح للطبيعة العجائبية للوحي كخطاب تواصلي، الاستفزاز والتحدي خصيصته.

الوحي عبر مساراته كلّها، التي تقصّاها القرآن الكريم، كان أشغال هدم وتشييد، حركة في كل مراحله. كأنه لحظات الاستفاقة في كل مراحل حياة البشرية. الأنبياء جميعهم كانوا حالة استثنائية بين أقوامهم، شخصيات (قلقة)، مزعجة لكل الهدوء والسكينة القاتلة التي تصيب المجتمعات المحتضرة، كانوا نواقيس خطر. لذلك مثلوا منعرجات حاسمة في تاريخ أقوامهم، بل وحتى في الحضارات القريبة من مواطن تواجدهم.

طبعا كثيرا ما يكون هناك بعد الوحي ورحيل النبيّ الكثير من الزيغ والانتكاسات، ولكنها أشياء طبيعية من جينة الإنسان الطوّاق للسكون حتى ولو كان ذلك على حساب الكرامة والحرية.

الوحي لا يستأذن وهو يقتحم الواقع، لكن بدون عداوة، هو مربك، مستفز، كما أسلفنا، لكنك أبدا أن تلمس في خطابه ذلك الغضب الصاخب والهجوم المنتقم، بل بالعكس لغة الوحي وخطاب الأنبياء وسلوكهم برغم كل الحزم والعزم على التغيير مضمّخة بالحب والشفقة على

الناس، حتى أولئك الذين يقفون في الصفوف الأولى لمقاومة الوحي والتغيير، الحوار والمجادلة هي السبل الأولى التي تشق نحوهم وتوضع أمامهم.

طبعا خطاب الوحي، كما وقع الكشف وتعرية الكثير من أساليبه من خلال القرآن الكريم، له مستويات متعدّدة، لعلّ الملفوظ أيسرها، رغم كل ما سيثار لاحقا بدون استثناء حول نصوص الوحي (التوراة / الإنجيل / القرآن).

عندما يخترق الوحي الواقع كما يخترق المدينة نهر شكّلته الأعاصير والأمطار الغزيرة دون مسارات مسبقة، فإنه ولا بد سيكون من بين المهام الرئيسية التي سيشتغل عليها إعادة تشكيل المكان.

الوحي، وعبر كل التجارب، لا يتبع خططا توضع مسبقا، ولا مسارات ملزمة، هو يعارك الواقع، ويعبر المكان تماما كما يعبره الناس، ويقول الخطاب بلغة القوم، إلا أنه في خطواته لا يلتزم حادي القوم، وخطابه ليس بالضرورة يخضع لإعرابهم. هو يحترم قوانين المدن ويساير الأعراف غير أن (ارتجاليّته) قد تبدو تحدّيات وخروج عن العوائد والمألوف... وهي كذلك، وتلك هي الميزة، وهي شروط الفهم وآليات القراءة.

صرامة الحضور لا تعني بالضرورة رغبة الهيمنة وعدم الاعتراف بالمتلقي والمشارك، وإن كانت المسافة بين هذه وتلك (الصرامة / الهيمنة) في دقة الشعرة. فالوحي وسيرة الأنبياء يوقفاننا على روعة التوازن، حيث ينساب نهر الوحي عبر دروب المكان الذي يحلّ فيه

متقصّدا، بانتقاء عجيب، كل الصخور العاتية والجبال العالية التي تقف مانعة لامتداد المكان وفسيح النظر.

الملأ من القوم، والطغاة من أصحاب الأموال والسلطان هم الأحجار التي تُفتّت من أجل إعادة تشكيل المدينة... طبعا بسواعد أهلها.

الوحي لا يقدّم نفسه أبدا كبديل للواقع، هي مراجعات ووجهات أخرى للنظر في الحياة والفعل والإنسان. هي تلك الخيارات المهجورة، والفرص المهدور. هو بعث للإنسان كي يعيد للذات الاعتبار بعيدا عن أوهام التسلّط والمكابرة.

الوحي قضية الإنسان باقتدار، سؤال التفاعل والاستثمار لا سؤال الماهية. هو كالروح تماما يعيش به البدن متى فهم وأدرك قوانين اشتغاله ومكامن قوته وأسراره. غير ذلك ضياع في بيداء الأوهام أو النكران.

كل ما سبق يؤطر نظرتنا لقضية خطاب الوحي من أجل طريق غير ذي عوج بين تجاذبات الهيمنة ومتطلبات التأسيس، حيث يكمن التحدي الأكبر؛ كيف يمكن أن نستلّ من الوحي خطابا يؤسّس للواقع دون التردي في سلطوية خانقة لروح التحرر والثورة داخل الوحي؟

الإشكالية إذن هي خيارات القراءة والتفاعل. فالوحي مجرّد طينة لزجة، يمكن أن نصوغ منه تحفا وأواني للاستعمال اليومي، ويمكن كذلك أن نسيء جواره فيصير مجرّد أحجار عثرة، وركام تراب فقد كل الماء الذي فيه.

المأسسة والتأسيس فعلا الإنسان ومن ضمن خياراته، فالتنزيل فعله، والخطاب الديني قوله، مهما حاول أن يوهم أنّه مجرّد راوية للنص ومعبّرا عن إرادة الربّ. الوحي خطاب ليس في ذلك شك، وهو يقول ذاته ويقدّم خياراته بلسان القوم ومن خلال تجاربهم وتفاعلاتهم، لكنه الإنسان هو من يُعرب كل القول ويصرّف أفعاله، ويكسو التجارب الثياب التي يشتهي ويختار. لذلك نحن نرى في ثقة أن الوحي ليست له هموم سلطوية بالمعنى البشري للكلمة.

خيارات الوحي، وأوامره ونواهيه، ومسارات النجاة، الوحي يقدّمها كلها كنوع من المسؤولية حيال الوجود، لنقل إنها ملاحق وتفصيلات تتبع (الأسماء) من أجل توضيح وكشف ما قد يلتبس من المعاني بسوء الاستعمال.

التأسيس: العقل في مواجهة الوحي

التأسيس فعل عقل همه الفهم والإفهام، لذلك ينساق خلف منطق ومعقولية يفترض أن الوحي يجب أن يتأسس عليها ويتبعها. فالوحي خطاب واقع، وللواقع شروط وتحكّمات، وبالتالي على الوحي أن يتأسّس على قواعد وأصول ومقاصد تراعي ذلك الواقع وتحقق المناط.

العقل التأسيسي يرى كل ذلك بديهيات يجب مراعاتها والانطلاق منها. لذلك على الوحي أن يتجسد في أقوال وأفعال قابلة للتشريح والتدقيق؛ فالكتاب يصبح نصا مرتلا ومقروءا، والنبيّ يقدّم كتجربة وتجسيد.

الإيمانيات التي يتأسس عليها الوحي، العقل التأسيسي لا يستطيع التعامل معها إلا كمنظومة اعتقادية منضبة ضمن نسق مترابط. وما يصوغه الوحي كضمانات وجودية تصبح الزامات عقائدية تضبط الولاء والانتماء.

العقل التأسيسي لا يرى في العِقد إلا حبله الناظم، الحبّات تصبح أقل قيمة مقارنة بالخيط والمكان الذي تنتظم فيه. هي المسارات والتيّارات والمذاهب لها على الأفكار سلطان.

وقد يبدو الامر بديهيا، فالمدارس والمذاهب كذا ينتظم شأنها، ووفق تلك الشروط والمسارات يكون الإبداع والتفاعل مع الواقع. لا إشكال في ذلك وليس يعيب البشر أنهم يسعون لامتلاك واقعهم؛ مكانا وزمانا، فذلك هو القانون الأول للتدافع.

لكن المنزلق الذي نحسب أننا وقعنا فيه أننا ألزمنا الوحي بكل تلك الشروط والاكراهات التي نخضع لها قولا وفعلا. الوحي ليس خطاب تشريع ولا تأسيس بالمعنى (التدافعي)، فهو خارج

اللعبة إلا بما هو مسارات تعطي العقل آفاقه، والتجربة كل حظوظها، وليس يعنيه حدود العقل، ولا يعبأ بمنتهى التجربة، فليس هو البتة خطاب منع كما يحلو للكثيرين اعتباره.

الوحي ليس تذكيرا للإنسان بما لا يقدر، وإنما هو تحفيز له لما يستطيع. لذلك يُبقي الوحي خطابه منفتح الزمان والمكان، والطلب ليس الأمر منتهى مقاصده، وإنما الإمكان إغراءاته.

الحلال والحرام هي شهوات الذات حيال أفعالها، تتوسّل النص كي تعبر إليها. فالتكاليف أعمدة المدينة، ونظام حياة الإنسان، ليست هي أساسيات خطاب الوحي ولا حقيقة جوهره.

الإنسان في الوحي ليس هو الفرد واللحظة، ليس هو إشكال للمعالجة وتصريف الشؤون، وإنما هو قضية الإمكان في الوجود كيف يحقق المعادلة. اليومي هو أمانة الإنسان وضريبة السجود.

الوحي يتعالى بما يتجاوز حدود الشرط وضيق الزمان كي يفسح للإنسان آفاق النظر ورحابة الإمكان. لذلك الوحي ليس مستبدا بما يأمر، ولا مخضعا للإنسان بما يلزم.

المأسسة: الواقع في مواجهة الوحي

إذا ما انتقلنا من فعل التأسيس إلى لعبة المأسسة فنحن ندخل المرحلة الأخطر من لعبة الاستخلاف وإدارة الأسماء. هنا ليس التلفّظ هو الإشكال الأكبر، فببعض (الكلمات) قد تكون النجاة، قال تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:37]، إنها الخيارات والمواقف وليس فقط القراءة والتأويل. فالتأسيس وإن كان فعل ضبط وتقنين ففسحته تبقى كافية كي يمد الوحي جذوره ويسافر عاليا من خلال فروعه. لكن بمجرّد أن ترتفع

الجدران ويُشدّ عليها سقف، وهو غالبا لا يكون مرفوعا، يبدأ ضيق المكان وتختنق الجذور، وتتعوّد الأغصان ألم الانكسار.

الاجتماع قانونه التنازل والخضوع ومكاسب تبرّر كل ذلك وتخفف وطأته. وأي خطاب في تفاعله مع الواقع يحتاج أن يمر عبر تلك الأنهج الضيقة، ولا بد له أيضا من غرف يحط فيها الرحال؛ أفكاره ورؤاه وتصوّراته، مما يعني أن تكون هناك مراسيم وخطط للاتباع، وطبعا أشخاصا يديرون المكان. هكذا كانت تدار اللعبة بمجرّد أن تتحوّل الأفكار إلى تيّارات ومدارس ومؤسسات، ويُقدّم السياسي نفسه (كراع للسلام).

المأسسة الوجه المشرق من الدولة أما وجوب توفر القطيع كي تنجح المأسسة، فتلك شؤون داخلية الحديث حولها غير محبّذ، لذلك لا بد أن يكون هناك (المرياع) الذي يعرف كيف يقدّم أفضل صورة عن القطيع، ويحسن فن القيادة. بعد أن استطاع السياسي أن يوفر له كل شروط النجاح؛ حليب القائد (الحكيم)، وإزالة القرون، وطبعا الخصي.

للأسف في تاريخنا الحضاري أجبر الخطاب الديني في فترات طويلة على لعب ذلك الدور، وربما اختاره البعض طواعية، وربما أيضا لا يزال البعض إلى اليوم يرى في الدور بعض العزاء عن هيبة مفقودة.

هذه الصورة المفزعة عن المأسسة ليست كل القصة وإلا كنّا مجانبين للصواب. فخلف كل تلك السحب الداكنة، أو ربما من خلالها، تمد المؤسسة الزرع والضرع بما يشد عوده، ويملأه بالخيرات. فالمأسسة كانت أيضا طرقا معبدة أسرعت عبرها الخطى، وكانت تدافعا حاول الكل أن لا يتوقف، بغير تلك النية طبعا، وكانت المؤسّسة الصخرة التي تكسّرت عليها التصوّرات والآراء، والسيف الذي خلّد الأفكار، وأعلى قامات الرجال فغدوا مسارات.

ليس كل السلطان عدوّا للفكر، فلولا الليل لم تُبصر النجوم، ولولا إبليس ما علم آدم أنه يملك ميزة الاختيار. لذلك عندما تطرح قضية المأسسة في علاقتها بالوحي يجب أن نثبّت الخطى ونحن نتقدّم، وأن نبعد عنا الولاءات والعداوات، فليس كل الأغصان للنار حطبا، ولا كل الثمار للسوق تُحمل.

الوحي كما أسلفنا (فضاء مفتوح) كي يحقق الإنسان ذاته باستمرار، وأن يُبرهن أنه جدير بالسجود، وأنه يحسن التعامل مع الأسماء. الوحي لا يملكه أحد، فهو يقبل الكل ويُقبل على الكل، ولا يردّ عن حوضه إلا من بدّل وغير وتنكّر للطينة التي خلق منها. حتّى من لا يؤمن، الوحي لا يصده ولا يمنعه أن تكون له حيرة وشك واعتراض.

الوحي كما الماء تماما يأخذ كلٌّ منه ما يقدر على حمله، وله أن يستعمله فيما يشاء؛ شرابا سائغا أو خمرا مسكرا. فكل الخيارات مفتوحة إلا أن المسؤولية فردية. والشمس لا يعيبها شيء ان اختار البعض النار ضياء بتعلة شيء من الغياب هو قانون الوجود.

الوحي صريح لا يتحرّج من قوانين الوجود، فكل حاجات الناس هي منابع للذة والحياة. ولا حرج في الجمع بين الاثنين، الطهورية الزائفة كانت خدعة المأسسة بامتياز... ابن خلدون تفطن لذلك وهو ما أسماه " نحلة العيش ". وأبو يعرب المرزوقي له كلام جميل في الموضوع.

من أجل كل ذلك يمكن أن نقول إن المأسسة حق مشاع، ولكن ليحذر الإنسان، فالوحي برئ إن هو اختار نار القبيلة على شمس النهار.

الخطاب الديني في زمن الذكاء الاصطناعي

قد يرى البعض في الرجوع إلى الخطاب كدواء لأمراضنا الحضارية، والمراهنة عليه في النهوض بحالة الأمة، شيئا من العبث والمغالطة في زمن أصبح التفكير فيه صناعة وتقنية تمارسها الآلة. في زمن لم يعد فيه الإنسان يقنع بالآلة بديلا عنه في الفعل بل أصبحت الغاية والمفاخرة أن تنوبه في التفكير.

نعم، لا تتعجب صديقي، فالتفكير والتحليل أصبح ترفا ما عاد يطيقه الإنسان. اليوم النجاح والتميّز لم يعد بجودة الفكرة وثمارها بل بسرعة حضورها وحسن تقديمها، هو الإبهار قد غدا عنوان النجاح. اليوم وبكبسة زر وبعض المهارات البسيطة، وبدون مقابل حتّى، يستطيع أي شخص، مهما كان مستواه العلمي، أن ينتج خطابا مقروءا، مرئيا، بجودة عالية، وروح أكاديمية يصعب التشكيك فيها.

في هذا الزمان ماذا تستطيعه بعض التصوّرات والمقاربات، مهما كانت حماستها وصدق نواياها، أن تحققه. زمن أصبح الإنسان أكبر عبء، والتحدي ليس في الأفكار وإنما في ضبط الخوارزميات. اليوم نحن لا نواجه الآخر المختلف، وإنما النسخة المتفوقة. لم تعد الأفكار محل تشكيك ونظر، بل فعل التفكير ذاته بدأ يفقد جدواه !

والذي يزيد الأمر عبثية أننا نطوي، في سرعة وحبور عجيب، كل الأشرعة التي يمكن أن نعدّل بها المسارات، أو أن نواجه بها الرياح. خصوصا نحن أصحاب الذات المنهوبة والحاضر المعطوب.

فنحن لا نزال نتابع الوضع، نعم نعم... بكثير من الوعي والحذر، ونسأل الله في السر أن يخفف ما نزل.

طبعا المسألة عندنا لاتزال في باب المستحب والمندوب، وربما قرأها البعض ضمن باب البدعة والمحظور.

لكن، ومع كل ما سبق، لا يزال اليقين يسكننا أن ما نحن حياله، من تقليب النظر في الخطاب الديني، يمكن أن يساهم في تجاوز لحظة الدهشة والانبهار التي تطوقنا اليوم، وفي تصحيح مسارات الوصول إلى الوحي باعتباره سفينة نجاة الإنسان.

الوحي، كما فصّلنا القول حوله سابقا، كان دوما، بلغة العلوم الحالية، الخوارزميات التي يعاد بعثها كلما اختلط الأمر على الإنسان، وتشعبت به السبل، وما عادت أنظاره ولا أفكاره تهديه الصراط المستقيم.

حالة التعالي التي يعيشها الإنسان اليوم في جوهرها شبيهة إلى حد بعيد بما حدثنا عنه القرآن الكريم من قصص الأمم الخوالي. بل هناك الكثير من النظريات المعاصرة في التاريخ البشري تذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يرى الكثيرون، بأدلة محيّرة، أن ما وصلنا إليه اليوم من معارف وتقنيات لا يزال بعيدا جدا عمّا وصله أسلاف سابقون.

إذن برغم كل ما ينذر به الواقع ومسارات التطور من تهديد مباشر لهيمنة الإنسان على الوجود فإن الخطاب يبقى قادرا، إن لم نقل الأجدر، أن يعيد لعقل البشر إنسانيته، ولخطواته توازنها. الوحي هو النجاة، وخطاب ديني ينبني على **تصورات** نابعة من حقيقة هذا الكائن وجوهر الرسالة (الإنسانية / الكونية / الخاتمية)، ويقرأ الوحي من خلال **مفاهيم** وقع تصحيح مساراتها وضبط احالاتها (الحق / الحقيقة – النص / اللغة – الأصل / المقصد – الفقه / التشريع – الإعجاز / الصد)، ويقع تنزيلها وفق **آليات** تترفع عن (احتكار المعرفة / احتكار السلطة)، خطاب بتلك المواصفات هو وحده القادر على توظيف تلك الخوارزميات الإلهية التي تضمّنها الوحي.

الخطاب فعل قراءة وتأكيد حضور الإنسان الفاعل في الوجود. التخفّي وراء الشجرة أو وراء الآلة، أو حتى تقديم الشبيه الأقدر، كلها حيل لن تنجي، وإن بدت اليوم كنوع من التعالي والتباهي بفعل الإنابة.

مواجهة خيارات الإرادة وتحمل تبعات نشوة السجود هي الحلول المنجية، أما التنكر للدور الحقيقي للإنسان، وعدم الاعتراف بالأسماء كسبيل أوحد للنجاة فذلك هو الخسران المبين.

لا الطاعة والتسليم المطلق، ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: 30]، ولا رفعة الأصل وضمانة التأخير، ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:76]، ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: 15]، ولا حتى القوة وصلابة القانون، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: 72]،

هي شروط النجاح في إدارة الوجود، **الكلمة** هي أساس التعامل مع الكون وسبيل النجاح في الإمساك بالمعادلة السوية لتحقيق أفضل السبل الموصلة إلى حياة لا إفساد فيها... وذلك كان التحدي.